

شباب الاحياء الشعبية العاقل عن العمل واستراتيجيات التعايش والمقاومة

فہیہ لیبیا و تونس و المغرب

تحت إشراف

ألقة لملوم ومريم عبدالباقي

فريق البحث والتحرير

أسماء خليفة / فوزي بوخريص / محمد رامي عبدالمولي



**شباب الاحياء الشعبية العاقل عن العمل
واستراتيجيات التعايش والمقاومة
فيم ليبيا و تونس و المغرب**

حول إنترناشونال ألرت تونس

انترناشونال ألرت هي منظمة دولية غير حكومية تعمل من أجل تعزيز السلام وحل النزعات في العالم. لها صفة العضو الاستشاري في منظمة الأمم المتحدة. يعمل مكتب تونس لمنظمة انترناشونال الرت منذ 2012 على دعم الحقوق الاقتصادية والاجتماعية وتعزيز مشاركة الشباب في الاحياء الشعبية والمناطق الداخلية و اسناد آليات الديمقراطية التشاركية المحلية ومشاريع نموذجية في الاقتصاد الاجتماعي والتضامني.

© إنترناشونال ألرت 2022

جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز نسخ أي جزء من هذا المنشور، أو تخزينه في نظام لاستعادة البيانات، أو نقله بأي شكل من الأشكال وأي وسيلة من الوسائل الإلكترونية أو الآلية، أو عن طريق النسخ أو التسجيل أو غير ذلك، من دون نسبة كلياً إلى المصدر.

تصميم النسخة العربية: مهدي الجليطي

صور: صدري خياري

حول مؤسسة فريدريش إيبيرت

مؤسسة فريدريش إيبيرت هي مؤسسة ألمانية غير ربحية تمويلها حكومة جمهورية ألمانيا الاتحادية، ويقع مقرها في بون وبرلين.

تأسست عام 1925 وسميت على اسم أول رئيس ألماني منتخب ديمقراطياً، فريدريش إيبيرت. تلتزم مؤسسة فريدريش إيبيرت بالنهوض بالتنمية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بروح الديمقراطية الاجتماعية، عبر التربية المدنية والبحث والتعاون الدولي. وتعد مؤسسة فريدريش إيبيرت أقدم مؤسسة سياسية في ألمانيا.

لمزيد من المعلومات حول مؤسسة فريدريش إيبيرت

www.fes.de

شباب الاحياء الشعبية العاطل عن العمل واستراتيجيات التعايش والمقاومة في ليبيا و تونس و المغرب

تحت إشراف

ألفة لملوم ومريم عبدالباقي

فريق البحث والتحرير:

أسماء خليفة

فوزي بوخريص

محمد رامي عبدالمولى

العمل الميداني:

سهام الشرفادي

جمعية سلا المستقبل

محمد الصول

حظيت هذه الدراسة بالدعم المادي واللوجستي من قبل مكتب فريدريش إيبرت في تونس وليبيا والمغرب فكل الشكر لكل الذين حرصوا على إنجاح هذا المشروع.

السيرة الذاتية للباحثين والمشرفين

أسماء خليفة: ناشطة وباحثة ليبية تعمل منذ سنة 2011 في مجال حقوق الإنسان والمرأة وتمكين الشباب. منخرطة في دعم مشاركة المرأة في الحكومة المحلية والتصدي للعنف القائم على النوع الاجتماعي. في عام 2015، شاركت في تأسيس حركة النساء الأمازيغية. كما شغلت العديد من المهام كمستشارة وباحثة حول قضايا النوع الاجتماعي وتعزيز القدرات في بناء السلام في ليبيا. تقوم حاليًا بتحضير أطروحة دكتوراه في المعهد الألماني لدراسات المناطق العالمية تبحث في تأثير الحرب الأهلية في ليبيا على العلاقات بين الجنسين.

الفة لملوم: دكتورة في العلوم السياسية ومديرة مكتب اترناشونال اليرت بتونس. شغلت سابقا باحثة في المعهد الفرنسي للشرق الأدنى في بيروت واستاذة مساعدة في العلوم السياسية في جامعة ناتار، باريس 10.

من إصداراتها:

Jeunes et violences institutionnelles. Enquêtes dix ans après la révolution Tunisienne, (co-dir.), International Alert et Arabesques, Tunis, 2021.

The Middle East in the Media. Conflicts, Censorship and Public Opinion (co-dir.) Saqi Books, London, 2009.

فوزي بوخريص: دكتور في علم الاجتماع ومتحصل على شهادة التبريز في الفلسفة وأستاذ التعليم العالي ونائب عميد كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية في جامعة ابن طفيل بالقنيطرة في المغرب. من إصداراته:

التربية البيئية وإشكالية بناء المواطن الايكولوجي، منشورات الرباط نت، الرباط 2021. (مشارك مع د. عبد الله هرهارة)

في سوسيولوجيا الأحزاب السياسية: الأحزاب السياسية بالمغرب بين التنمية المحلية والتنمية السياسية، منشورات الرباط نت، الرباط، 2019 (مشارك مع د. مليكة موحتي)

في سوسيولوجيا العمل الجمعي بالمغرب: من التطوع إلى العمل المأجور، كوثر برانت، الرباط، 2015.

محمد رامي عبد المولى: متحصل على ماجستير في الأدب الفرنكوفوني وماجستير في الصحافة متعددة المنصات. مترجم وكاتب صحافي مهتم أساساً بالقضايا الإجتماعية- الاقتصادية: هجرة غير نظامية، اقتصاد موازي، السياسات الاقتصادية، إدارة المرفق العام، البيئة واستغلال الموارد الطبيعية. يعمل ضمن فريق منصة "السفير العربي" ويتعاون مع عدة مواقع ومنصات صحافية أخرى: جريدة الأخبار اللبنانية، أوربان 21، المفكرة القانونية، المراسل، The Funambulist.

مريم عبد الباقي: متحصلة على ماجستير في نظريات العلاقات الدولية من جامعة لندن للإقتصاد والعلوم السياسية ومديرية برامج في انترناشونال الرت - مكتب تونس. شغلت سابقاً على مشاريع إقتصادية وسياسية في مصر وعملت كمعيدة تغطي سياسات الشرق الأوسط والعلاقات الدولية في القاهرة.

المحتويات

- 08 مدخل إلى البطالة الشبابية واستراتيجيات التعايش والمقاومة
الفة لعلوم ومريم عبد الباقي
- 13 حي أبو سليم، ليبيا
أسماء خليفة
- 26 حي التضامن، تونس
محمد رامي عبدالمولى
- 68 حي سلا القديمة، المغرب
فوزي بوخريص

مدخل إلى البطالة الشبابية واستراتيجيات التعايش والمقاومة

الفقة لعلوم ومريم عبد الباقي

ما انفكت الدراسات السوسولوجية منذ ثلاثينات القرن الماضي، بداية من العمل الرائد لعالمة الاجتماع ماري جاهودا حول العاطلين عن العمل في قرية صغيرة في النمسا في سنوات 1930¹، تؤكد على ان البطالة هي «محنة» تنمهي مع الموت الاجتماعي².

مع ذلك بقيت الأبحاث التي تناول وقع البطالة على صحة العاطلين عن العمل شحيحة حتى وان توصل بعضها الى استنتاجات مهمة. ففي فرنسا على سبيل المثال اثبتت احداها ان العطالة تسبب ارتفاعا في معدلات الوفيات لدى الذكور والاناث من العاطلين عن العمل وتدهورا في صحتهم الجسدية والنفسية يشهد عليه ارتفاع سلوكيات الإدمان لديهم. كما خلص عمل بحثي آخر الى اثبات وجود علاقة مباشرة بين البطالة وارتفاع نسب الإصابة بأمراض القلب والشرايين والسرطان³. وفي نفس السياق، أظهرت دراسة أجريت في مصر وجود علاقة سببية لدى الشباب بين هشاشة عملهم من جهة وصحتهم النفسية من جهة اخرى. وخلصت إلى أنه كلما كانت الوظيفة مستقرة وتعاقدية، كانت الصحة العقلية للفرد أفضل. بالإضافة إلى ذلك، بينت ان وقع هذا الوضع على النساء أقوى مقارنة بالرجال. كما ان فقدان وظيفة قارة والانخراط في وظيفة موسمية أو عرضية له تأثير على الصحة النفسية للفرد مماثل لوضعية بطالة⁴.

نادرة جدا هي أيضا الإصدارات البحثية التي رصدت تمثلات العاطلين عن العمل لبطالتهم واستكشفت مساراتهم الحياتية وتجاربهم في البحث عن عمل او استراتيجياتهم للعيش وتلبية الاحتياجات الاساسية والتأقلم مع العطالة او العطوبة⁵ والتعامل مع العزلة الاجتماعية والوصم وضغوط العائلة ووقت الفراغ. وتظهر شحة هذه الدراسات المنطقة العربية بشكل جلي. فعلى الرغم من الاهتمام المتنامي بالمسائل الاجتماعية والشبابية خصوصا منذ اندلاع الثورات العربية، لم تحظ هذه المداخل البحثية بالاهتمام اللازم، اذ ركز معظم ما نشر على الحراك الاحتجاجي للعاطلين عن العمل، خاصة من حاملي الشهادات الجامعية⁶.

1 JAHODA (Marie) et al., Les Chômeurs de Marienthal, Paris, Éditions de Minuit, 1982 [1933], 144 p.

2 انظر LINHART (Danièle) et al., Perte d'emploi, perte de soi, Paris, Erès, 2009, 190 p, DEMAZIÈRE (Didier), La Sociologie du chômage, Paris, La Découverte, 1995, 128 p., PAUGAM (Serge), « L'épreuve du chômage: une rupture cumulative des liens sociaux ? », Revue européenne des sciences sociales, XLIV-135, 2006, pp. 1127-.

3 Pierre Meneton, Léopold Fezeu, Serge Herberg, Joël Ménard, Mmes Emmanuelle Kesse-Guyot, Pilar Galan and Caroline Méjean, « Unemployment is associated with high cardiovascular event rate and increased all-cause mortality in middle-aged socially privileged individuals », enquête SUIVIMAX International archives of occupational and environmental health.

4 Ehab, M. (2019), Employment transitions youth and mental health implications in Egypt, Economic Research Forum. <https://erf.org.eg/publications/employment-transitions-of-youth-and-mental-health-implications-in-egypt/?tab=undefined&c=undefined>

5 انظر مثلا الى Mona Amer, 2015, « Patterns of Labor Market insertion in Egypt. 19982012- », in Ragui Assaad and Caroline Krafft, The Egyptian Labor Market in Era of Revolution, Oxford Scholarship Online, June 2015.

6 انظر مثلا في الحالة المغربية Montserrat Emperor Badimon. Lutter pour ne pas chômer : le mouvement des diplômés chômeurs au Maroc . Lyon, Presses universitaires de Lyon, 2020.

يحاول هذا الإصدار الجديد لانترناشيونال الرت تقصي هاتين المسألتين مركزا على التأثير النفسي للبطالة على الشباب العاطل عن العمل وتجربته اليومية في درتها ومواجهتها والتعايش معها والتعاطي مع مخلفاتها. وقد تبنت فصوله الثلاث مقارنة نوعية استندت على مقابلات فردية وشهادات ونقاشات تفاعلية في إطار مجموعات بؤرية شارك فيها شبان وشابات يقطنون في ثلاثة احياء شعبية في المغرب وتونس وليبيا، وهي على التوالي مدينة سلا القديمة في الرباط، حي أبو سليم في طرابلس وحي التضامن في تونس، اعتمادا على دليل تشييط موحد.

تم تنظيم ثلاث مجموعات بؤرية في كل حي، ضمت الأولى مجموعة ذكور عاطلين عن عمل لم يستكملوا تعليمهم، وخصصت الثانية لمجموعة من الاناث اللاتي لم يستكملن تعليمهن في حين كانت المجموعة الثالثة مختلطة وضمت ذكورا واناثا من حاملي الشهادات المعطلين عن العمل.

يعكس اختيار هذه البلدان الثلاثة رغبة منظمنا، انترناشيونال الرت التي تعمل منذ سنوات في تونس، في توسيع دائرة مقاربتها المجالية المقارنة في دراسة الشباب في الهوامش على اعتبار ان ظاهرة البطالة الشبانية في بلدان المغرب، وبصفة اشمل في المنطقة العربية، من اهم التحديات التي تواجه مجتمعاتها، كما انها تنزل ضمن مسألة اللاعدالة الصارخة التي تعاني منها.

وعلى الرغم من افتقار المنطقة العربية الى بيانات دورية عن الدخل والثروة، وهي ضرورية لقياس التفاوتات الاقتصادية والاجتماعية، فان هناك شبه اجماع على انها تسجل اقل درجات المساواة في العالم حيث تشير ارقام الى استحواذ 10% من السكان الأكثر ثراء على نسبة 58% من الدخل مقارنة مثلا بالبرازيل او افريقيا الجنوبية المعروفتان بفداحة الفوارق الاجتماعية فيهما وابن تتراوح هذه النسبة بين 50 و 55%.

جاء التقرير الأخير لمنظمة الاسكوا لسنة 2022 ليؤكد من جديد على ان نسبة البطالة في صفوف الشباب والشابات في المنطقة العربية هي الأعلى عالميا على مدى السنوات الخمس والعشرين الماضية.

وقد برزت هذه العطالة في العقود الأخيرة كظاهرة بنوية عارمة، ورغم ان ارقامها ليست دائما محينة ودقيقة وهي في كل الحالات وان وجدت لا تعطي الا فكرة عامة عن الظاهرة⁸ -فإن البنك العالمي مثلا يقدر نسبتها حسب أحدث الأرقام المتوفرة في سنة 2020 ب 28.4%⁹. ومن المرجح أن ترتفع هذه الأرقام في السنوات القادمة لتمر من 14.3 مليون شخص في عام 2019 الى 17.2 مليون شخص في عام 2030¹⁰. وبحسب ارقام البنك العالمي بلغت، في سنة 2020، نسب البطالة في صفوف الشباب الناشط البالغ من العمر ما بين 15 و 24 سنة 51,5% في ليبيا و 26,6% في المغرب و 38.1% في تونس.

ومع ذلك لم تكتف البطالة بالتوسع في صفوف الشباب من الوافدين الجدد على سوق العمل، بل ان كل المؤشرات تدل على ان المدة المتوسطة لهذه البطالة قد تمددت مستهدفة بدرجة اولي شباب الهوامش الحضرية وبشكل خاص الفتيات رغم التقدم التي أحرزته في مجال التعليم وتحصيل الشهادات مقارنة بجيل امهاتهن. اذ تبلغ نسبة البطالة بين الشباب في المنطقة 40%

7 انظر الى كتاب : Thomas Piketty, Le Capital au XXI siècle

8 ذلك ان إحصائيات المنظمة العالمية للعمل تعتبر ان العاملين يضمنون كل من هم في سن العمل أي ما فوق ال15 سنة والذين خلال فترة وجيزة سبقت الإحصاء قد اشتغلوا.

9 <https://donnees.banquemondiale.org/indicator/SU.UEM.1524.ZS?locations=1A>.

وهي الأعلى على مستوى العالم وتمثل ضعف نسبة بطالة الشباب الذكور¹¹. كما ان أرقام منظمة العمل الدولية المستندة على آخر الإحصائيات المتوفرة تفيد بان نسب البطالة للذكور وللإناث هي على التوالي: 40,82% و67,84% في ليبيا و22,05% و22,75% في المغرب و33,8% و37,2% في تونس.

وتشكل العطوية والهشاشة الوجه الاخر لتفشي البطالة، وهي تشمل عاملين وعاملات بدون عقود، وبلا اي تغطية صحية او اجتماعية. وان كان من الصعب احتساب وزنهما الحقيقي والالمام بكل تمظهراتهما فلا شك ان أحد تعبيراتهما تزايد أعداد الشباب المنخرطين في القطاع غير المنظم، اذ تقدر نسبتهم في المنطقة العربية بحوالي¹² 85%.

ومن نافلة القولان جائحة كورونا قد كان لها وقع اقتصادي واجتماعي كارثي على الشباب المنحدرين من طبقات شعبية ان من حيث فقدانهم -او أحد افراد عائلتهم- لوظائفهم خصوصا في القطاع غير المنظم او في قطاع الخدمات الهش. ففي تونس مثلا صرح 20% من الشباب المتراوحة أعمارهم بين 18 و29 سنة من بين العاطلين عن العمل بأنهم فقدوا عملهم بسبب الكورونا، كما أكد 18% من المنتمين إلى نفس الفئة العمرية ان أحد افراد عائلتهم قد فقد عمله بسبب الجائحة.

وكان من نتائج الجائحة انها دفعت، حسب تقارير رسمية، 16 مليون انسان في المنطقة العربية الى هوة الفقر، ليلبغ عدد الفقراء فيها أكثر «من 116 مليونا أي ما يقارب ربع السكان».

في ليبيا يعتبر حي أبو سليم الواقع في جنوب طرابلس من أكبر أحياء العاصمة الليبية. يعاني شباب الحي من الوصر المرتبط بمكان سكنهم نظراً لوقوع سجن ابوسليم فيه أين عذب وقتل الاف المعتقلين السياسيين الليبيين. هذا بالإضافة إلى أهمال الحي وتكدس السكان فيه. وكان الحي شاهدا على مواجهات عنيفة خلال الثورة الليبية.

في حي التضامن الواقع على تخوم العاصمة تونس والذي تشكل عبر موجات متعاقبة من النزوح الداخلي تبلغ نسبة السكان الشباب دون سن 29 سنة أكثر من النصف ويصل معدل البطالة الشبابية فيه الى قرابة 20% وتناهز 28% في صفوف الشباب حاملي الشهادات. لعب الشباب دورا مركزيا في الحي ابان الثورة، ثم تعاقبت الحكومات ووعودها دون أن تتغير أحوال حال الشباب في الحي.

مدينة سلا هي اهم المراكز الحضرية في جهة الرباط تنامي عدد سكانها هي الأخرى على وقع تصاعد موجات الهجرات الداخلية. يسكنها اليوم حوالي نصف مليون نسمة وتبلغ فيها البطالة حسب التقديرات الرسمية حوالي 13,5% وترزح تحتها النساء بالأساس.

تعالج الفصول الثلاثة لهذا الاصدار الجديد أربعة مداخل رئيسية، يتقصى الأول وقع البطالة على الشباب من حيث الصحة الجسدية والنفسية والعلاقة مع العائلة والأصدقاء وإدارة وقت الفراغ، في حين يتناول المدخل الثاني الاستراتيجيات التي يتبعها الشباب لدرء تأثيرات البطالة والعطوية عليه مثل السعي إلى متابعة الدورات التكوينية او بعث مشاريع او العمل الهش، ويركز المدخل الثالث على تجارب الشباب اليومية مع السياسات العمومية في مجال إدارة العطالة والتشغيل،

11 International Labor Organization. Global Employment for Youth 2020: Arab States, wcms_737672.pdf (ilo.org)

12 على سبيل المثال وصلت النسبة الى 77% في تونس حسب منظمة العمل الدولية.

أما المدخل الأخير فيستكشف تمثلات وتجارب الشباب في الاحتجاج الجماعي.

وعلى الرغم من وجود أوجه اختلاف عديدة بين الدول الثلاث التي تشملها هذه الدراسة ان كان من حيث وقع الازمة الاقتصادية او طبيعة الأنظمة فيها، او مجريات الصراع السياسي وإعادة تشكل الفضاء المؤسستي بعد سقوط بن علي والقذافي في تونس وليبيا او إدارة ما بعد حراك فيفري في المغرب، فإن التقاطعات كثيرة في موضوع البطالة الشبابية واستراتيجيات المقاومة والتعايش التي يلجأ لها الشباب والشابات في مواجهة الاقصاء الاجتماعي الذي تنتجه. كما تتشابه مسارات البحث المضني عن عمل المحفوفة بالمصاعب والخيبات والالام والاهانة كما هو الحال في دول أخرى¹³. وتماثل عوائق التنقل نظرا لعدم توفر وسائل النقل العمومي في ظل غياب شبكات اجتماعية او دعم عمومي للعاطلين. علاوة على ذلك، تتقاطع تمثلات الشباب في الدول الثلاث حول تفشي الرشوة والمحسوبية وتراكم الحواجز البيروقراطية والإدارية التي تعيق بعث مشاريع صغرى وقصور النظم التعليمية في مواكبة احتياجات سوق الشغل.

والسبب الرئيس هنا وهناك هو نفسه: غياب فرص عمل مستدامة للشباب نتيجة اعتماد سياسات تقشفية تختلف حدتها في البلدان الثلاث لكن جميعها يستند الى نفس الوصفة النيوليبرالية من حيث تقليل او تجميد الانتداب في الوظيفة العمومية. أي تخفيض نفقات الخدمات الاجتماعية مما يجعل من السياسات التشغيلية للشباب برغم تعدد المراسيم المنظمة لها خصوصا في تونس والمغرب مجرد مسكنات لتخفيف وجع البطالة وامتناص الاحتقان.

في ليبيا، كما تبنت الباحثة أسماء خليفة في الفصل الأول من هذا الإصدار، وفي ظل غياب التنظيم السياسي أو النقابي للعاطلين عن العمل -على عكس بلدان أخرى في شمال أفريقيا- وتفاقم التضييقات على المجتمع المدني وانتهاك حرية التجمع فإنه من الصعب إن يتغير الوضع. ويتوقع أن تدفع بطالة الشباب إلى ازدياد التوترات ونمو الجماعات المسلحة كبديل وحيد يقدم امتيازات وتعويضات أكبر من تلك التي توفرها الوظائف التقليدية او حتى القطاع الخاص.

وفي تونس كما يبين محمد رامي عبد المولى في الفصل الثاني، لم تتغير كثيرا السياسات التشغيلية للشباب بعد الثورة. فهي لازالت تعتمد بالأساس على اليات هشة هدفها شراء السلم الاجتماعي. ومثل هذه السياسات هي بالضبط التي تقف وراء عدم ثقة الشباب في النخب الحاكمة منذ 2011 وكذلك خيبة الامل المتنامية في الرئيس قيس سعيد.

وفي المغرب كما يؤكد فوزي بوخريص في الفصل الأخير من الإصدار فان مجمل البرامج الحكومية التي تعتمدها الدولة من اجل مواجهة البطالة الشبابية كبرامج دعم التشغيل الذاتي او خلق المقاولات الصغرى او برنامج «فرصة» وغيرها ... ليست فقط دون حجم التحدي الذي تطرحه معضلة البطالة الشبابية، بل هي تتأتى في سياق مقاربة نيوليبرالية هدفها «محاربة الفقر».

تماما كما عنونت الاسكوا تقريرها الأخير في ليبيا وتونس والمغرب لاتزال بطالة الشباب قبلة موقوتة لن ينزع فتيلها ما لم يتم التخلي عن المقاربات النقدية والتقشفية.

13 Lynda Lavitry La morale de l'emploi. Les coulisses de l'Etat social actif, et de Flexibilité des chômeurs, mode d'emploi, Presses universitaires de France, 2015.



حي أبو سليم، ليبيا

أسماء خليفة

مقدمة

تامت ظاهرة البطالة في ليبيا حتى قبل أحداث عام 2011، حيث أشارت دراسات خصصت لمنطقة شمال إفريقيا إلى البطالة باعتبارها متسبباً رئيسياً في نزول الشباب إلى الشوارع للتظاهر في مصر وتونس وليبيا. حاول النظام الذي كان يحكم ليبيا قبل 2011 مواجهة هذه الظاهرة عبر الانفتاح على الاستثمارات وخلق مواطن شغل من خلال مشاريع التعمير، ولكن هذه المبادرات الواعدة لم يرافقها أي إصلاح للقطاع العام، ولم تنبني على أي سياسات عمومية استراتيجية. بعد رفع العقوبات عن ليبيا والسماح بالاستثمارات الأجنبية في القطاعات غير النفطية، شهد حجم الاستثمار الأجنبي المباشر في ليبيا بين عام 2000 وعام 2010 زيادة كبيرة بلغت مليارات الدولارات.¹²⁹ أفضى هذا الأمر إلى توفير فرص عمل لليبين في شركات ومشاريع متعددة. لكن تحول الثورة إلى حرب أهلية تسبب في تعليق كل المشاريع وإصابة البلد بالشلل. غادرت الشركات الأجنبية ليبيا، نظرا لعجزها عن حماية استثماراتها، ومثل استمرار الصراع المسلح عائقاً أمام عودتها.

خلق اقتصاد النزاع المسلح واقعاً اقتصادياً جديداً في ليبيا وجد الشباب ضمنه فرص عمل عبر الانضمام إلى المجموعات المسلحة، وأدى إلى استمرار الصراع لصالح الماسكين بالسلطة. فاقمت حلقة العنف المفرغة هذه تدهور البنية التحتية وخلقت تحديات متعددة في مسألة البطالة. أُجبت جائحة كورونا الوضع لتحوّل البطالة من ظاهرة إلى مشكلة مزمنة. وتسجل ليبيا حالياً إحدى أعلى نسب البطالة في المنطقة مع استمرار النزاع، الذي تتخلله اتفاقات وقف إطلاق النار هشة وعاجزة عن الصمود في ظل سياسات غير فعالة، ما يُبقي خطر عودة الحرب الأهلية ماثلاً.

انطلاقاً من هذا الواقع، تركّز هذه الدراسة على انعكاسات الوضع الاقتصادي في ليبيا على أحد أكبر الأحياء الشعبية في العاصمة طرابلس، وتبحث في أثر ارتفاع معدلات البطالة من منظور إنساني، وذلك عبر تفحص تجارب الشباب العاطلين عن العمل واستكشاف مسارات البطالة والتهميش في إطار حياتهم اليومية. تكمن أهمية هذا البحث في أنه لا يكتفي بتقصي الظروف الاقتصادية والاجتماعية للشباب في الأحياء الشعبية، بل يحاول أيضاً تفحص أثر البطالة عليهم واستقراء سلوكياتهم إزاء البطالة. عُقدت مقابلات مع ثلاث مجموعات بؤرية لتقييم الوضع الاجتماعي الاقتصادي على المستوى الفردي، وتناولت الأسئلة مواضيع متنوعة، من التعليم إلى الأثر النفسي واستراتيجيات البقاء والسياسات العامة العمومية. منحتنا المشاركة في الدراسة فهم أفضل لموضوع البطالة من زوايا مختلفة.

129 (حمودي وأيمر، 2017) (بالإنجليزية)

المنهجية

تأتى المراجع والأدبيات التي اطلعنا عليها في إطار هذه الدراسة بشكل أساسي من مقالات صحافية وتقارير تناولت موضوع البطالة بشكل غير مباشر¹³⁰ بالإضافة إلى دراسة أخرى تمحورت حول المرأة الليبية في سوق العمل. هناك فجوة معرفية كبيرة بخصوص موضوع البطالة في ليبيا، اعتمدت هذه الدراسة المنهج الكيفي كمقاربة بحثية، حيث نظمت جلسات مع ثلاث مجموعات بؤرية ضمت مجموعات سكانية متنوعة من حي أبو سليم الذي يقع في جنوب العاصمة الليبية طرابلس ويعد من أكبر أحيائها. تُقدَّر مساحته بنحو 128500 متر مربع،¹³¹ ولا توجد بيانات موثوقة فيما يخص عدد السكان أو أي إحصائيات ديمغرافية أخرى. يُتسم الحي بتنوعه، وقد عانى لسنوات من التهميش، وما زال يضم مناطق فقيرة.

توزعت المجموعات البؤرية الثلاث على النحو التالي: المجموعة الأولى من النساء بينهن عاطلات عن العمل وطالبات وريبات منازل، والمجموعة الثانية من الرجال بينهم عاطلون عن العمل وعاملون لحسابهم الخاص وعاملون في القطاع الخاص. أما المجموعة الثالثة فضمت نساء ورجلاً من خريجي الجامعات العاطلين أو العاجزين عن العثور على فرص عمل. امتدت كل جلسة مع المجموعات البؤرية ما بين ساعتين وثلاث ساعات، نوقشت خلالها أسئلة حول أثر البطالة على الصحة العقلية، واستراتيجيات التأقلم مع البطالة، وفرص التنمية، وسبل الدعم الممكنة.

اختير «أبو سليم» كسياق لاستكشاف آثار البطالة على سگان حي يعاني من صعوبات منذ سنوات. بعض المشاركين قالوا إن بعض مناطق أبو سليم تشهد ازدهاراً منذ انتخاب المجلس البلدي. وهذا مثال على المعلومات التي يصعب الحصول عليها أو دراستها. ضمت المجموعات البؤرية أفراداً نزهوا من مناطق أخرى إلى الحي، وآخرين يقيمون في أطراف الحي ويواجهون تحديات مختلفة في حياتهم اليومية.

البطالة في ليبيا

عام 2021، نشر البنك الدولي إحصائيات تكشف بلوغ نسبة البطالة في ليبيا¹³² 20.1%. هذه النسبة هي الأعلى منذ عام 1999 حسب تقرير «ستاتيسستا»، الذي اعتمد على الإحصائيات المعروفة والمسجلة على امتداد عدة عشرات.¹³³ تُبين هذه المعلومة أن البطالة في ليبيا حالياً أسوأ بكثير مما كانت عليه حين كانت ليبيا معزولة وخاضعة للعقوبات في تسعينيات القرن الماضي. شكك وزير العمل في حكومة الوحدة الوطنية في صحة هذه الأرقام مؤكداً أنها غير دقيقة نظراً لتنازع حكومتين على السلطة. وقال الوزير في مقابلة أجريت معه مؤخراً إن الإحصائيات تشير إلى وجود 300 ألف طالب شغل وأكثر من 2.4 مليون موظف.¹³⁴

130 دراسة ميدانية لوضع وتحديات وآفاق الاقتصاد الليبي، الجزء الأول من دراسة لمشروع الحوار الاقتصادي الاجتماعي في ليبيا، الإسكوا (بالإنجليزية).

131 (الرئيسية - بلدية أبو سليم، د. ت.)

132 (نسبة البطالة الإجمالية (% من إجمالي قوة العمل) (تقديرات منظمة العمل الدولية) - ليبيا، بيانات، 2022) (بالإنجليزية)

133 (أونيل، 2022) (بالإنجليزية)

134 (وكالة الأناضول، 2021)

يعود تضخم معدلات البطالة، في جزء كبير منه، إلى الحرب الأهلية المستمرة منذ عشر سنوات، والتي لم يقتصر أثرها السلبي على النمو الاقتصادي بل تسبب كذلك في الاستيلاء على بعض حقول ومصافي النفط ووقف الإنتاج فيها. وحسب توقعات «لجنة الأمم المتحدة الاقتصادية والاجتماعية لغرب آسيا» (الإسكوا)، سيؤدي التضخم وارتفاع كلفة الاستيراد وانخفاض سعر النفط إلى زيادة معدلات البطالة في ليبيا، لتصبح الأعلى في المنطقة.¹³⁵ وتؤثر ظاهرة البطالة أيضاً بعدم تعامل الحكومات المؤقتة المتعاقبة، المُنتخبة والمُعَيَّنة بعد عام 2011، معها كمسألة ذات أولوية.

تسجل هذه المعدلات غير المسبوقة في بلد يبلغ تعداد سكانه 7 ملايين نسمة، بشكل الشباب نسبة كبيرة منهم تقدر بأكثر من 50%.¹³⁶ وحتى نستجلي التبعات الاجتماعية لهذا الواقع يجب أن نبدأ باستيعاب معنى البطالة في ليبيا حيث يختلف المفهوم. تعني البطالة في ليبيا تلقي أجر شهري دون القيام بعمل فعلي. على مدى عقود، وضع نظام معمر القذافي سياسات اقتصادية أتاحت للسكان الحصول على أجور تصرفها لهم الحكومة حتى عندما لا يشغلون أي وظيفة، وتفاقم الأمر منذ انقسام السلطة في سنة 2014، حيث أدى وجود حكومتين إلى تضخم كتلة الأجور، وما انفكت هذه الظاهرة تتنامى مع فشل الحكومتين عن مواجهتها.

ومنذ قيام الثورة التي أطاحت بنظام القذافي عام 2011، تناقصت فرص التشغيل مع انزلاق البلاد إلى صراعات عنيفة عرقلت نموها الاقتصادي. تعتمد السياسة الاقتصادية في ليبيا على الاستيراد بشكل شبه كلي، ولا تُصدّر البلاد إلا النفط والمعادن الخام، الأمر الذي يقلل من فرص العمل.¹³⁷ تسببت الحرب الأهلية في تفاقم هذا الواقع مع نمو اقتصاد حرب، وتزايد اغراءات الالتحاق بصوف الجماعات المسلحة، وازدهار أنشطة السوق السوداء والتهرب. تأثير هذا الوضع على الليبيين متعدد الأشكال فهم يجدون أنفسهم في بيئة غير مستقرة بالمرّة، يصبح فيها القيام بأي نشاط يومي عادي، كالذهاب إلى العمل أو استخراج وثيقة رسمية، تحدياً أكثر فأكثر صعوبة.

يترك كل هذا، إضافة إلى الضغوط الأخرى مثل الاجهاد النفسي والقلق المستمرين من العيش في ظل الحرب والنزوح، أثراً هائلاً على قدرة السكان الذهنية على الإنتاج، ويمنعهم من المساهمة في تطور المجتمع.¹³⁸ يعاني الشباب بشكل خاص من هذا الوضع، ونتيجة عجزهم عن كسب قوت يومهم، كثرت، عبر السنوات الماضية، قصص الشباب اليائسين الذين يركبون القوارب إلى أوروبا. في مقال صحافي نُشر في موقع «عين» الإخباري، شارك بضعة شباب قصصهم وتحدثوا لدى وصولهم إلى إيطاليا عن أسباب خروجهم من ليبيا، وذكروا البطالة كدافع رئيسي.¹³⁹ فقدان الأمل في ليبيا له نتائج ملموسة أكثر، إذ لا يتعلق الأمر الطموحات والإمكانيات المهدورة فقط، بل يشمل أيضاً العجز عن توفير أساسيات الحياة.

135 (عبد الرحمن، 2021)

136 (ليبيا - صندوق الأمم المتحدة للسكان، 2021)

137 (الليبيون في خطر: قياس السلامة اليومية لبناء السلام بفعالية في ليبيا - كورديد 2020) (بالإنجليزية)

138 (مؤمن، 2019)

139 (عين، 2020)

التعليم وعلاقته بالبطالة

أجمع المشاركون في المجموعات المركزة الثلاث على أن التعليم لا يوفر التحضير والتأهيل المتناسبين مع سوق الشغل الحالي في ليبيا. وتختلف احتياجات وتطلعات الطلبة الليبيين اختلافاً كبيراً عن الواقع الذي ينتظرهم بعد التخرج. وتأثر النظرة إلى مدى فائدة الشهادة الجامعية بعامل الجنس، حيث أكدت المشاركات من النساء على الحاجة إلى الحصول على شهادة جامعية حتى إذا كان مصيرها الركن على الرّف. من خلال النقاشات حول هذا الموضوع، لاحظت أن المشاركات ينظرن إلى الشهادة الجامعية على أنها عقد تأمين. أحد أسباب ذلك المعايير الجندرية السائدة في ليبيا والتي تفترض من الشابات أن يعطين الأولوية لتكوين اسرة، وبالتالي لا يُنتظر منها مواصلة دراستها حتى الحصول على شهادة عليا. لكن، نساءً كثيرات يعتبرن الشهادة الجامعية ضرورةً -حتى عندما يتزوجن ويكون لديهنّ مُعيل- يمكن أن يعولن عليها إذا ما تغيرت الظروف.

يختلف الحال لدى المشاركين من الذكور، فهم مستعدون بشكل أكبر للتخلي عن الدراسة أو تعليقها لفترات طويلة خلال توليهم لوظائف متعددة. هناك الكثير من المشاكل على مستوى الجامعات بسبب النزاع والحرب، وإحداها التعليم عبر الإنترنت الذي يلاقي صعوبات جمّة نظراً لتواتر انقطاع التيار الكهربائي أو تدني جودة الاتصال بالإنترنت. ومما يزيد الطين بلة عدم تمتع الطلبة بدعم مالي يعينهم على تغطية تكاليف خدمة الإنترنت المرتفعة. زد على ذلك عدم توفر مكتبات أو إمكانية الوصول إلى الموارد، «الأمر الذي يجبر الطلبة على الدراسة في جامعات خاصة».

إلى جانب غياب الدعم والتشجيع للطلبة لمواصلة دراستهم، يعاني الشباب -الذكور خاصة- من انتظارات المجتمع الذي يتوقع منهم أن يصبحوا ذات يومٍ مُعيلين. هذا الضغط الاجتماعي هو أيضاً إحدى الأسباب التي تدفع الشباب من الذكور إلى تعليق مسارههم الدراسي أو التخلي عنه نهائياً. يقرر الكثيرون متابعة دراستهم وفق إيقاع بطيء بالتزامن مع مواولة العمل، ويصف هؤلاء الدراسة بأنها «وظيفة بدوام جزئي». في نهاية المطاف، سيحصل هؤلاء الطلبة على شهادتهم الجامعية ولكن ليس هذا المبتغى بالنسبة للكثيرين. وفق الكلمات التي استعملها أحد المشاركين «الهدف من الدراسة هو اكتساب المعرفة، والاحتفاظ بالشهادة لنفسي، فهي غير مفيدة إطلاقاً للعمل في العالم الحقيقي أو إيجاد فرص في سوق الشغل، فهذه الفرص غير موجودة أياً يكن مجال الدراسة». يمكن تفهم هذا الرأي فالكثير من الشباب ينتظرون عقود تشغيل حكومية منذ أكثر من سبع سنوات. «ما الفائدة من الشهادة الجامعية؟» هو سؤال مشروع يطرحه الطلبة الليبيون اليوم، خاصة عندما يرون أن الشهادة الجامعية لا تزيد حظوظهم في التشغيل.

لا تقتصر هذه الآراء على التعليم الرسمي في ليبيا، حيث عبّر المشاركون عن مواقف مشابهة بخصوص برامج التدريب وبناء القدرات، التي لا تقضي بدورها إلى العثور على فرص عمل.

«تابعُ دروسي خلال آخر فصلين سداسيين لي عبر الإنترنت خلال الحرب. ونتيجة انقطاع التيار الكهربائي وتدني جودة خدمة الإنترنت، لم أتمكن من مواكبة الدروس أو حتى سماع المحاضرات» - مشاركة - المجموعة المركزة الثالثة.

«الهدف من الدراسة هو اكتساب المعرفة ثم الاحتفاظ بالشهادة لنفسى، فهي غير مفيدة إطلاقاً للعثور على فرص في سوق الشغل، فهذه الفرص غير موجودة أياً يكن مجال الدراسة» - مشاركة - المجموعة المركزة الثالثة.

الأثر النفسي للبطالة

أظهر المشاركون والمشاركات في المجموعات المركزة الثلاث تردداً في الحديث عن الصحة العقلية وتأثير البطالة النفسي عليهم. كما هو متوقع، كان من الأسهل عليهم اعطاء أمثلة من محيطهم الاجتماعي. وخلال النقاشات، عاد المشاركون إلى وصف المشاكل التي تواجههم، الأمر الذي يشير إلى إحباطهم الشديد. قال أحد المشاركين الذكور إن المعنويات متدنية جداً. ولا يبدو ان هناك اختلاف في مدى تأثير البطالة على الصحة النفسية حسب الجنس، حتى وإن اشارت المشاركات إلى قضايا مثل العمل الغير مدفوع الأجر ومسؤولية العناية بالأطفال وغياب سبل للترفيه.

في المجموعة المركزة الثالثة، وصف الطلبة والخريجون المتخرجون من الجامعة الأثر النفسي بأنه هائل، وتطرقوا إلى انتشار المخدرات بين الشباب وكذلك الاجهاد النفسي المتزايد الذي يؤدي إلى تفاقم مشاكل الصحة العقلية التي يعانون منها. يجب أن نضع في اعتبارنا الأحداث الصادمة التي يعيشها الليبيون في السنوات العشر الأخيرة بالإضافة إلى غياب الاستقرار والعجز عن التخطيط للمستقبل.¹⁴⁰ إحدى المشاركات وصفت الصعوبة التي تجدها في استيعاب هذا الوضع ذهنياً: «تخرجتُ ولم يحظى هذا الأمر بالتقدير. صدمني ذلك وترك لدي أثراً عاطفياً».

مع تقدم النقاشات، قال المشاركون إن الأثر النفسي للبطالة يختلف من شخص إلى آخر، واعتبروا ان وجود عائلة داعمة أو الانتماء إلى طبقة ميسورة، يوفر للشباب الإمكانيات المادية اللازمة لإطلاق مشاريعهم. وتبين من خلال شهادات الحاضرين أن المشاركات تتلقين دعماً مالياً ولوجستياً أكبر مقارنة بالمشاركين الذكور الذين لمحووا إلى أنهم لا يتوقعون هذا النوع من الدعم. ولئن اتفق المشاركون في المجموعات البؤرية الثلاث على ضرورة مساهمة كلا الجنسين في الاقتصاد فإن الانتظارات المعلقة على الرجال أعلى، اذ يتوقع منهم العرف الاجتماعي أن يكونوا هم من يوفر مدخول للأسرة ويشتري المنازل ويضطلع بدور رب العائلة. وعلى الرغم من ان الممارسة العملية تبين اختلافا في تقسيم وتوزيع العمل نظرا لعوامل اجتماعية اقتصادية متعددة، ما زال يُنظر من الرجال أن يتحملوا مسؤوليات أكبر في تلبية احتياجات الأسرة الليبية.

وهذا سلاح ذو حدين في المجتمع الليبي، فهو من جهة أولى يمنح النساء بعض الدعم، ولكنه من جهة أخرى يعيق كليا استقلاليتها المالية. وبالنسبة للرجال، حتى إذا اعتمدوا على الدعم العائلي، فهم يخشون نظرة المجتمع لهم إذا لم يتماثلوا مع الصورة النمطية لهم

كُمُعيلين. في الوقت نفسه، تؤدي الظروف الحالية إلى بعض التغيير في هذه الأعراف الاجتماعية الصارمة في ليبيا، حيث فرضت الحرب ذات الطبيعة الذكورية الطاغية اختلالاً في تقاسم الأعباء والمسؤوليات، فهناك عدد متزايد من النساء صرن يتحملن مسؤولية قيادة الأسرة، الأمر الذي اضطر العديد منهن إلى العمل. يرى الطلبة والخريجون الشباب أن العثور على عمل واكتساب الخبرة والمهارات يعتمد على قدراتهم، ولكن توفر البيئة السياسية والاقتصادية الملائمة لدخولهم سوق العمل مسألة أخرى.

« غياب فرص العمل تنقص حتى في قدرتك على تحقيق الذات. الرزق يعني الحياة، إنها الحياة بشكل عام.»

«عندما لا يجد الشاب أو الشابة وظيفة حتى في القطاع الخاص، يترك ذلك أثراً كبيراً. أرى من حولي الشباب الذين يلجؤون إلى المخدرات، أو يعانون من ضغط نفسي هائل» - مشاركة - المجموعة المركزة الثالثة.

استراتيجيات التعايش مع البطالة وتجاوزها

على ضوء الظروف الاقتصادية الصعبة وبيئة النزاع العنيفة، تراوحت النقاشات حول استراتيجيات المشاركين للتعايش مع البطالة وتجاوزها، من العثور على فرص عمل بديلة إلى الأنشطة الترفيهية. وفي هذا الصدد أشارت المشاركات إلى غياب الأنشطة الترفيهية المتاحة للنساء خارج المنزل، عدا اللقاء في المقاهي والاشتراك في قاعات الرياضة خاصة، وهما خياران يتطلبان إمكانية استخدام وسائل النقل وموارد مالية، الأمران اللذان لا يتوفران لدى العديد من النساء الليبيات. أما المشاركون من الذكور، فيتمتعون بحرية أكبر في الفضاء العام. وعبر معظم الشباب الليبيين عن تفضيلهم ممارسة الرياضة، ولاسيما كرة القدم، في الهواء الطلق. وعلى الرغم من أن جلسات المجموعات البورية أجريت في أكبر مدينة في البلاد، فإن الذكور يهيمنون على الفضاء العام بقوة.

توافق أغلب المشاركين على أن البديلين الأساسيين للخروج من حالة البطالة هما إطلاق مشروع تجاري والعمل في القطاع الخاص، ويتناول البحث هنا هذين البديلين بالتفصيل. يشكّل إطلاق مشروع تجاري وبعث المؤسسات الطريق المُحَدّد لدى الأغلبية، ولكن ذلك يحتاج إلى تمويل غير متوفر، حيث تقتصر ليبيا بشكل حاد إلى البنى التحتية وآليات تمويل القطاع الخاص. وليس امتناع البنوك عن تقديم قروض لتأسيس مشاريع تجارية هو العائق الوحيد، بل يُضاف إلى ذلك تعقيدات الإجراءات البيروقراطية المطلوبة لتسجيل مؤسسة جديدة والتي تفر الكثير من الباعثين الشبان وتحبط عزائمهم.

«بعد تخرجي من جامعة خاصة، بدأت العمل في المجال الإداري. كان الأجر متدنياً والعمل مرهقاً. شعرتُ بالإحباط والكآبة، لا بسبب الأجر المتدني فحسب، بل بسبب المعاملة التي لقيتها أيضاً. لم أكلّف بأعمال ترتبط بمجال دراستي، وكانت القشة التي قسمت ظهر البعير

أنه طُلب مني تنظيف المكتبة. حين تقدمتُ لهذه الوظيفة، كنتُ أريد اكتساب خبرة مفيدة، ولكنني وجدتُ نفسي أعمل في بيئة فوضوية اضطرتُّ فيها إلى اختراع عملي بنفسي لقاء أجر متدنٍ» - مشاركة - المجموعة المركزية الثالثة.

تحدثت مشاركتان تمتلك كل واحدة منهما مشروعها التجاري الخاص عن تجاربهما والصعوبات التي واجهتاها للحفاظ على مشروعيهما التجاريين في زمن الحرب، والقيود التي فرضتها إجراءات احتواء وباء كوفيد - 19، حيث تأثّر العمل سلباً بانقطاع التيار الكهربائي لساعات طويلة وإجراءات حظر التجول وغلقت الطرقات، إلى حد اضطراب إحدى المشاركتين لتصفية مشروعها التجاري نظراً لأن الخسائر صارت تفوق الأرباح بكثير.

وبحسب المشاركين فإن عمل في القطاع الخاص له آثار معقّدة. شهدت ليبيا تغيرات هائلة في كل من قطاع التكنولوجيا وفرص الشغل. يرى أحد المشاركين أن القطاع الخاص يشغل أغلبية الشباب، وتبيّن دراسة أجريت عام 2017 أن نصيب النساء من هذا التشغيل ضعيف جداً.¹⁴¹ لكن من المؤكد أن ثقافة العمل في ليبيا قد تغيّرت. تناقش المشاركون في المجموعات البؤرية الثلاث حول الوظائف التي لم يكن الليبيون والليبيات يقبلون العمل فيها مثل وظائف «الباقيات الزرقاء والوردية» (اعمال لا تتطلب مؤهلات عالية) ومنها على سبيل الذكر لا الحصر العمل كنادلة أو في مجالات تحضير الطعام والتوصيل أو التنظيف. ويعتبر المشاركون ان العمل في هذه الوظائف أصبح أمراً عادياً، مما يمثل حسب آرائهم تطوراً إيجابياً.

توفر إحدى المشاركات في الدراسة خدمة توصيل راكبات مستعملة سيارتها الخاصة، ودكرت أن قيام النساء بهذا العمل، أو الاشتغال في مجال البيع بالتفصيل، كان يندرج ضمن مفهوم «العيب» قبل بضع سنوات، ولكنّه لم يعد كذلك. رغم تنوع ومرونة فرص العمل في القطاع الخاص، خاض المشاركون كافة، للأسف، تجارب تعرّضوا خلالها للاستغلال وتلقوا أجوراً متدنية جداً، وفي بعض الحالات، عملت نساء شابّات تعوزهن الخبرة بلا مقابل. وعندما سئلوا عن كيفية تعاملهم مع هذه المشكلة، قال المشاركون إنه لا توجد بدائل، فالمشغلين واصحاب الأعمال يستغلون الطرف الاقتصادي ويعلمون أن الباحثين عن العمل سيقبلون بظروف العمل السيئة والأجور المتدنية. كما أشار المشاركون مرة أخرى إلى انتشار المحسوبية، التي تعيق وصول أصحاب المؤهلات إلى مواطن الشغل المتاحة، في القطاعين العام والخاص.

«فرص العمل في ليبيا موجودة.. تمام؟ لكن فرص العمل كيف يبجن الا بالواسطة، يا عندك حد معرفة باش تخش في العمل، قصدي حتى تتخرج مافيش فرص العمل ناقصة الامور ماتعرفش كيف. - مشاركة - المجموعة المركزية الثانية.

«تقديم مطالب الشغل ليس بالأمر السهل. آلاف المطالب تتكدس عند وزارة العمل التي لم تقدم مساعدة لأحد في العثور على فرصة عمل. الفساد الإداري منتشر بشكل كبير» - مشاركة - المجموعة المركزية الثالثة.

لاحظ كافة المشاركين أن هناك تغيرات في ثقافة العمل تحصل في محيطهم وعلى الإنترنت أيضاً. وعبر المشاركون الذكور عن نظرة أكثر إيجابية بخصوص استخدام وسائل التواصل الاجتماعي في البحث عن عمل. لا تتوفر معلومات وافية حول بناء وتعزيز القدرات وفرص التكوين، حيث أكد المشاركون اضطرارهم إلى بذل جهود كبيرة في البحث عنها أو الانضمام إلى المجموعات التي لديها نفاذ إلى هذه المعلومات، وتشمل هذه الفرص المساعي والمشاريع المشتركة بين منظمات دولية من جهة، ووزارة العمل وغيرها من الوزارات من جهة أخرى.

من شأن هذه الفرص أن تقدم فائدة أكبر بكثير لو رافقتها عروض شغل جديدة، وإلا فإنها بلا أفق كما أشار بعض المشاركين.

السياسات العمومية

لم تضع الحكومات الليبية المتلاحقة، حتى قبل سنة 2011، استراتيجيات واضحة لمكافحة البطالة. خلال فترة حكم نظام القذافي، شهدت المنظومة الاقتصادية الليبية تغيرات جذرية، من تفكيك القطاع الخاص في ثمانينيات القرن العشرين، إلى عقوبات اقتصادية استهدفت النفط بدايةً ثم اتسع نطاقها واستمرت لأكثر من عشرين سنة.¹⁴² استجابت الحكومات الليبية لهذه التغيرات بشكل مُرتَجَل، فدعمت السلع النفطية والغذائية والنسيج، وحاولت تعويض نقص المواد المستوردة بتوفير البضائع ودفع أجور للمواطنين. وظل هذا واقع معظم الليبيين حتى سنة 2004، بعد 2011، زادت الحرب الأوضاع سوءاً.

خلال النقاشات، طرح المشاركون في المجموعات البؤرية الثلاث أفكاراً واقتراحات لما يمكن للحكومة الليبية فعله لتحسين الظروف الاقتصادية في البلاد. أهملت الحكومات الانتقالية المتعاقبة ظاهرة البطالة المتنامية وتجاهلتها إلى حد كبير، حتى طرحت حكومة الوحدة الوطنية، التي عينتها الأمم المتحدة عام 2020، سياسة عمومية ذات طيبة شعبية. وكان رئيس الوزراء عبد الحميد الدبيبة أول سياسي يتحدث مباشرة إلى الشباب، فقطع وعوداً لم يفي بها، ولكن تناول المصاعب الأساسية التي يعاني منها المجتمع، وإن كان الهدف منه تحقيق مكاسب سياسية فحسب، سلط الضوء على حاجة الليبيين الملحة إلى الخروج من النفق المظلم الذي أدخلت فيه البلاد. أطلقت حكومة الدبيبة مشروع «إحياء ليبيا»، وهو على الورق مشروع ضخم يركز على إعادة بناء البنية التحتية. يتطلب تنفيذ المشروع تخصيص ميزانية قد تصل حسب البنك الدولي إلى 200 مليار دولار خلال العقد المقبل. وأعلن وزير العمل الليبي أن هذه المبادرة ستوفر فرص عمل لليبيين والأجانب.¹⁴³

ولعل «منحة الزواج» هي أكثر مبادرات «حكومة الوحدة الوطنية» شعبية، وهي توفر للشباب مساعدة مالية ليتمكنوا من الزواج، وعلى الرغم من عواقبها غير المباشرة التي أدت إلى زيادة

142 (فانديفال، 2006)

143 (وكالة الأناضول، 2021)

كارثية في حالات زواج القُصْر، تلقى هذه المبادرة دعماً من الرأي العام الليبي،¹⁴⁴ توافقت الأهداف المنشودة من هاتين المبادرتين مع تطلعات بعض الشباب الليبي. خلال جلسات المجموعات البؤرية، دار النقاش حول تطلعات المشاركين بخصوص الأمان الوظيفي وإمكانية الاستقلال المادي و«فتح بيت»، أي تأسيس أسرة. ولكن، إذا ما أرادت الحكومة التمكن من تحقيق أهدافها، فلا بد لها من التصدي إلى الفساد المالي والإداري الكبيرين المستشريين فيها.

أشار المشاركون في هذه الدراسة إلى الفساد كلما تم اقتراح أي فكرة جديدة، واعتبروا أن المحسوبة وغيرها من أشكال الفساد هي ما يجعل الحصول على شغل احتمالاً بعيد المنال إذا لم تكن للباحث عن العمل علاقات بأشخاص متنفذين. أبرز مثال على ذلك خريجي كلية الطب الذين لا يجدون عملاً أو يعملون مقابل أجور زهيدة مقارنةً بالشباب الذين يتلقون أجوراً مرتفعة عند التحاقهم بمجموعات مسلحة.

في المجموعة المركزة الثالثة تم التطرق إلى مسألة هامة أخرى وهي غياب التواصل والتنسيق بين الوزارات، وعلى وجه الخصوص بين وزارة العمل ووزارة التربية والتعليم، حيث رأى المشاركون أن هذه مشكلة كبيرة يتوجب حلها، فغياب استراتيجيات قائمة على دراسة أوضاع الطلبة الليبيين واحتياجاتهم سيزيد عدد العاطلين عن العمل وخريجي الجامعات المحبطين.

لا تقدم وزارة العمل الدعم لرواد الأعمال الشباب وللراغبين في انشاء مؤسسات صغيرة، بل توفر رواتب صغيرة للمُسجّلين كباحثين عن عمل. كل شهر، تكبر قائمة الباحثين عن عمل أكثر، وبعضهم ينتظر رد الوزارة منذ أكثر من سبع سنوات. علاوة على ذلك، هناك صعوبات كبيرة في إجراءات التسجيل التي تستغرق شهوراً من المعاملات التي قد لا تجدي نفعاً إذا لم يكن لطالب الشغل علاقات بموظفين في الوزارة. ومع ذلك يفضل المشاركون هذا الخيار على القطاع الخاص للأسباب التي أوضحناها في الأقسام السابقة.

طرح المشاركون بعض المقترحات لما يمكن للحكومة القيام به لتعزيز القطاع الخاص وجعله أكثر تنوعاً، ومنها إعادة النظر في الإجراءات البيروقراطية الحالية والعمل على إصلاح البيئة السياسية والاقتصادية بشكل يتيح المزيد من الحريات. واقترح المشاركون أن تمنح الحكومات الليبية المستقبلية الأولوية لوضع سياسة اقتصادية لا تأخذ بعين الاعتبار فقط آثار الحرب الأهلية المستمرة منذ عشر سنوات، بل تصوغ أيضاً إطاراً قانونياً وإدارياً يتيح تفعيل المشاريع التي تحتاج إلى قوى عاملة، وذلك عبر إجراء دراسات استراتيجية تهدف إلى إحداث إصلاح متعدد القطاعات.

العمل النقابي والانخراط في المجتمع المدني

رسم حديث المشاركين عن العمل النقابي والنشاط ضمن المجتمع المدني صورة قائمة عن تقييد الحريات في ليبيا في السنوات الأخيرة. لا توجد نقابات للعاملين في القطاع الخاص، أما نقابات العاملين في القطاع العام فهي حديثة العهد ولا تشمل العاطلين عن العمل. لم يسبق لأي واحد من المشاركين في المجموعات البؤرية أن تعامل مع هذه النقابات. اختلف تجاوب

المشاركين مع مسألة العمل النقابي والاحتجاج حسب جنس المشارك، حيث تحدّث المشاركون الذكور عن قضايا المواطنة بشكل أوضح، ولعل ذلك يعود إلى أن الرجال في ليبيا أكثر اطلاعاً على النقاشات العامة، وبالتالي، تتوفر لهم فرص أكبر للمشاركة والتفاعل.

عند سؤال المشاركين عما إذا كانوا قد نظموا بأنفسهم أو شاركوا في احتجاجات على الوضع الاقتصادي، كان الرد: من يستطيع الاحتجاج في ظل الظروف الأمنية الحالية؟ حيث يمنع الخوف من المواجهة مع المجموعات المسلحة والعواقب المحتملة للاحتجاج الشباب من تنظيم أنشطة مدنية احتجاجية. على الرغم من ذلك خرجت في آب/أغسطس 2020 مظاهرات كبيرة ضد الفساد في طرابلس، ثم امتدت إلى مصراتة والزاوية، واستمرت حتى شهر تشرين الأول/أكتوبر من نفس السنة. وأفاد «حراك الشباب»، الحركة الشبابية التي نظمت بعض هذه المظاهرات، باعتقال نحو 24 متظاهراً، وبأن المجموعات المسلحة التابعة لحكومة الوحدة الوطنية استخدمت العنف المفرط.¹⁴⁵

عبّر المشاركون كافة عن خوفهم من التعبير عن آرائهم علناً ومن الاحتجاج على الوضع القائم. خلال الشهور التي تلت تحرير ليبيا في تشرين الأول/أكتوبر 2011، خرجت في طرابلس مظاهرات بشكل أسبوعي، وأحياناً أكثر من مرة في نفس الأسبوع، ولكن ثقافة حرية التعبير أخذت في التدهور منذ سنة 2014، حتى أصبح الصمت أعلى من أصوات الرصاص في ليبيا.

خاتمة

يُجمع العاطلون عن العمل من سكان حي أبو سليم، سواء كانوا من المتخرجين حديثاً أم ممن ينتظرون التشغيل في القطاع العام الحكومي منذ سنوات، على الشك في إمكانية تحسن الوضع الاقتصادي في ليبيا، مع استمرار المأزق السياسي والإغلاق القسري لحقول النفط المترافق مع ارتفاع معدلات التضخم. تجد ليبيا نفسها مجدداً تحت إدارة حكومتين منقسمتين وتتضاءل فيها احتمالات التغيير لتحقيق الاستقرار. لا يمكن رؤية البطالة كمشكلة معزولة عن مجريات النزاع في ليبيا، فهي من نتائجه، وانتشارها يساهم في إذكائه في الوقت نفسه.

تُظهر المراجع والأدبيات التي استندت إليها هذه الدراسة، وكذلك جلسات المجموعات البؤرية، فجوة معرفية كبيرة في دراسة ظاهرة البطالة في ليبيا، الأمر الذي يؤكد الحاجة إلى المزيد من الدراسات حول هذه القضية في مناطق مختلفة من البلاد للتوصل إلى الصورة الكاملة، بما فيها الاختلافات والتشابهات بين مناطق إدارة الحكومتين. فعلى سبيل المثال، لا يوجد اختلاف كبير بين الجنسين من حيث آثار البطالة في حي أبو سليم، ولكن قد يُلاحظ اختلاف أكبر في المناطق الريفية، وثمة حاجة إلى دراسة ذلك.

العاطلون عن العمل في ليبيا لا ينشطون في تنظيمات سياسية، ولا توجد هيئات تدافع عن قضيتهم وتحمي حقوقهم، على عكس دول أخرى في شمال إفريقيا، المغرب وتونس تحديداً، حيث توجد مثل هذه الهيئات. ونظراً للهجوم المستمر على المؤسسات المدنية وحرية التجمع والتعبير، لاسيما في طرابلس، يبدو احتمال تعيّر هذا الواقع ضئيلاً.

145 (ليبيا: مجموعات مسلحة تقمع مظاهرات شعبية بعنف، هيومان رايتس ووتش، 2020) (بالإنجليزية)

أخيراً، من الواضح أن الآثار الاجتماعية للبطالة على الشباب، ولاسيما على الذكور منهم، تساهم في احتدام التوتر وتنامي قوة ونفوذ المجموعات المسلحة، كونها تقدم فرص عمل بديلة بامتيازات أكبر وأجور أعلى من الوظائف العادية، ولاسيما وظائف القطاع الخاص.

المراجع

- وكالة الأناضول للأخبار. «وزير العمل الليبي: البطالة تختفي مع إعادة الإعمار». 16 تموز/يوليو 2021.
<https://www.aa.com.tr/ar/tqarir/وزير-العمل-الليبي-البطالة-تختفي-مع-إعادة-الإعمار-مقابلة/2306382>
- أميني، عبد الرحمن. «الاقتصاد الليبي في العام 2021: توقعات بتزايد البطالة وارتفاع فواتير الاستيراد والتضخم». جريدة الوسط. 9 كانون الثاني/يناير 2021. <http://alwasat.ly/news/libya/307000>
- العين الإخبارية. «البطالة في ليبيا... تأشيرة موت أو هجرة بلا عودة». 9 تشرين الأول/أكتوبر 2020.
<https://al-ain.com/article/unemployment-libya-youth-fly-inout>
- بوغيجيس، هالة؛ تنتوش، محمد. النساء في سوق العمل في ليبيا: الواقع والتحديات. (بالإنجليزية). 2017.
https://docs.euromedwomen.foundation/files/ermwf-documents/7511_4.6.womeni_nthelibyanjobmarket-realityandchallenges.pdf
- الإسكوا. مقدمة لدراسة لوضع وتحديات وآفاق الاقتصاد الليبي، الجزء الأول من دراسة أساسية لمشروع الحوار الاجتماعي الاقتصادي الليبي، قراءة محسنة. د. ت. (بالإنجليزية).
<https://orientxxi.info/magazine/فيتزجيرالد، ماري. «الشباب الليبي يحلم بالزواج»، أورينت 21. 2017. libyan-youth-dream-of-marriage,5420>
- الحمودي، مصطفى؛ أيمر، نجمي. «أثر الاستثمار الأجنبي المباشر على النمو الاقتصادي في ليبيا». النشرة الدولية للأدب الإنجليزي والعلوم الاجتماعية. 2 (6) (بالإنجليزية)، كانون الأول/ديسمبر 2017. ص 144-154.
<https://doi.org/10.22161/IJELS.2.6.22>
- خليفة، أ. الشباب الليبي دون ضمانات: بلوغ سن الرشد في ظل النزاع (عدد «بلوغ سن الرشد في ظل النزاع»، سلسلة مسارات الشباب). 2022.
- ليبيا، صندوق الأمم المتحدة للسكان (بالإنجليزية).
<https://www.unfpa.org/data/world-population/LY>. 2021
- هيومان رايتس ووتش. ليبيا: مجموعات مسلحة تقمع مظاهرات شعبية بعنف (بالإنجليزية). د. ت. قُرئت في 21 نيسان/أبريل 2022.
[libya-armed-groups-violently-quell-protests/10/09/https://www.hrw.org/news/2020](https://www.hrw.org/news/2020/libya-armed-groups-violently-quell-protests/10/09)

ريليف ويب. الليبيون في خطر: قياس مستوى السلامة في الحياة اليومية لاستعادة السلام بكفاءة في ليبيا. د. ت. قُرِئَتْ في 28 آب/أغسطس 2021.

<https://reliefweb.int/report/libya/libyans-risk-measuring-daily-safety-effective-peacebuilding-libya>

مؤمن، محمد. «البطالة في ليبيا: مأساة اقتصادية ومشكلة هيكلية». هنا ليبيا.
[/https://hunalibya.com/economy/6505/](https://hunalibya.com/economy/6505/)

أونيل، آرون. ليبيا - معدلات البطالة من 1999 إلى 2020. 2022.
<https://www.statista.com/statistics/808770/unemployment-rate-in-libya/#statisticContainer>

البنك الدولي. معدلات البطالة الإجمالية في ليبيا

(% من إجمالي قوة العمل) (تقديرات منظمة العمل الدولية)، بيانات. 2022.

فانديفال، ديرك. تاريخ ليبيا الحديث. 14 (4)، ص 1 - 246. (بالإنجليزية) منشورات جامعة كامبريدج،
<https://doi.org/10.1017/CBO9780511986246>. 2006

موقع بلدية أبوسليم، الصفحة الرئيسية. د. ت.، قُرِئَتْ في 21 نيسان/أبريل 2022. [/https://mas.gov.ly](https://mas.gov.ly)



حي التضامن، تونس

محمد رامي عبدالعولى

تقديم الدراسة

حرصت منظمة إنترناشيونال الرت-تونس منذ بداية عملها في تونس على استكشاف الهوامش الجغرافية والاجتماعية مع ايلاء العمل الميداني أولوية قصوى والتركيز على فئة الشباب. وأنجزت عدة دراسات كمية ونوعية لاستطلاع تقييمات المواطنين- خاصة الشباب منهم- لخدمات وسياسات الدولة في مجالات التعليم والصحة والوصول إلى الماء الصالح للشرب وغيرها، وتجاربهم مع ظواهر اجتماعية واقتصادية مثل التهميش السياسي والاقتصادي والبطالة التهريب والاقتصاد غير المهيكل والهجرة والعنف البوليسي والعنف الأسري، وكذلك تمثلاتهم للسياسة والدين والسلوكيات/ التجارب المحفوفة بالمخاطر مثل إدمان المخدرات والجريمة والسجن و«الحرقه» والإرهاب¹⁴.

وكان حي التضامن من بين المناطق التي حظيت باهتمام كبير في أغلب المشاريع البحثية التي نفذتها المنظمة، لما تمثله، كوسط حضري مهمش ومفقر وموصوم بالجريمة والإرهاب يقع على تخوم مدينة كبيرة، من أرضية خصبة لدراسة مختلف الظواهر التي أشرنا لها. لذا وقع عليه اختيارنا لدراسة ظاهرة البطالة عند الشباب، لا بوصفها حالة اقتصادية/مادية فقط بل كذلك كوضع له استتبعاته الاجتماعية والنفسية والسياسية. وسعينا من خلال هذه الدراسة النوعية إلى تقديم عمل بحثي لا يكتفي بتحليل الأرقام والمعطيات «الباردة» ويحاول أن يستكشف كيف «يتعايش» الشاب العاطل عن العمل مع حالة العطوبة المزمنة. تركز البحث على أربعة محاور رئيسية. في المحور الأول تناولنا مسألتين أساسيتين، تتعلق الأولى بتأثيرات البطالة على الصحة النفسية للعاطل عن العمل وكيفية تعامل المستجوبين معها، والثانية تتمثل للعاطل عن العمل لتأثير وضعه على روابطه مع العائلة المصغرة والموسعة والأصدقاء وحتى علاقاته العاطفية. وخصصنا المحور الثاني لتتبع مسارات الشباب العاطل في البحث عن عمل وتدبر نفقاته اليومية وتطوير قدراته لترفيح حظوظه في الشغل وكذلك المعوقات التي يصطدم بها. أما المحور الثالث فأردنا من خلاله استطلاع تقييمات العاطلين عن العمل للسياسات التشغيلية العمومية ومدى اطلاعهم عليها. المحور الرابع والأخير مخصص لدراسة مدى انخراط الشباب العاطل عن العمل في الحراك الاجتماعي ومواقفه من الحركات الاحتجاجية وعلاقته بالأحزاب والجمعيات.

منهجية البحث وتقديم العينة

لئن كانت البطالة ظاهرة متفشية بقوة في أوساط الشباب على اختلاف فئاتهم العمرية ومستوياتهم التعليمية ونوعهم الاجتماعي فهذا لا يمنع ان هناك خصوصيات لكل شريحة، وحرصا منا على الإلمام بها في هذه الدراسة النوعية اخترنا تقسيم المستجوبين إلى ثلاث

مجموعات بؤرية. ضمت المجموعة الأولى ثمانية مستجوبين من الذكور العاطلين عن العمل الذين لم يستكملوا تعليمهم، وتتراوح أعمارهم ما بين 20 و29 سنة. المجموعة الثانية خصصت للعاطلات عن العمل اللاتي لم يستكملن تعليمهن: ثمانية مستجوبات تتراوح أعمارهن ما بين 22 و29 سنة. أما المجموعة البؤرية الثالثة فلقد ضمت 6 عاطلين عن العمل (3 ذكور و3 إناث) من حاملي الشهادات الجامعية، تتراوح أعمارهم ما بين 24 و29 سنة.

دامت جلسات العمل مع كل مجموعة على حدة ما بين ساعتين وثلاث ساعات، واستندت المقابلات مع المستجوبين على استبيان موحد للمجموعات الثلاثة يتضمن أسئلة متوزعة بين المحاور الأربعة التي ذكرناها أعلاه، بمعدل خمسة أو ستة أسئلة في المحور الواحد. ونظرا لخصوصية بعض المجموعات طرحت أسئلة إضافية تتعلق مثلا بتأثير البطالة على حرية التنقل بالنسبة للمستجوبات ومدى اقبالهن على العمل المنزلي كحل لوضعهن الاقتصادي، أو بمدى ندم المستجوبين في مجموعة العاطلين من أصحاب الشهادات على استكمال دراستهم ومدى مشاركتهم في منازعات الانتداب العمومية.

ونذكر هنا ان اختيار تركيبة العينات المستجوبة ومحاور البحث والأسئلة وتحضير دليل المقابلة مع المستجوبين تم بعد تنظيم ورشات عمل مع باحثين مختصين في قضايا الشباب والسياسات العمومية. ونشير أيضا إلى أن هذه الدراسة تدرج ضمن مشروع بحثي أكبر تحت إشراف منظمة انترناشيونال الرت وشريكها منظمة فريديريش إيرت، ويتمثل في إنجاز دراسة ميدانية سوسيوولوجية نوعية حول مسألة البطالة الشبابية في ثلاث مناطق شعبية في سلا في المغرب وحي التضامن في تونس الكبرى وطرابلس في ليبيا من اجل فهم وتفكيك واقع البطالة الشبابية في هذه الفضاءات الحضرية المهمشة من وجهة نظر الشباب نفسه.

تقديم حي التضامن

يقع حي التضامن في ولاية أريانة ضمن إقليم تونس الكبرى (شمال شرق البلاد)، ويعد من أكبر «الأحياء الشعبية» في تونس والمنطقة المغاربية. ظهرت النواة الأولى للحي في أواسط ستينات القرن الفائت ببضعة عشرات من المساكن ومئات السكان ثم تضخم بشكل سريع وعشوائي منذ السبعينات ليتضاعف عدد سكانه عدة مرات دون أن توفر له الدولة البنى التحتية اللائمة ليشكل حزام فقر على تخوم العاصمة يستقطب الفقراء والمهمشين الباحثين عن عمل وسكن رخيص من عدة مناطق تونسية أهمها الشمال الغربي. وعلى الرغم من بعض الاستثمارات العمومية والتحسينات التي عرفها الحي بعد انتفاضة جانفي 1978 في إطار امتصاص الغضب الشعبي فإن سياسة الدولة تجاه هذه المنطقة بقيت قائمة على الاقصاء الاقتصادي والاجتماعي والمراقبة الأمنية. ومنذ جانفي 2011 صار اسم الحي كثير الحضور في الإعلام، بشكل سلبي في أغلب الأحيان جعل الكثير من التونسيين يمثّلها كمعقل للسلفيين الجهاديين ومستهلكي/ مروجي المخدرات و«المخربين» الذي «ينهبون» المحلات التجارية والمؤسسات العمومية تحت غطاء الاحتجاجات الليلية. وهكذا ينضم الوصم الاجتماعي إلى الفقر والتهميش ليشكلوا مثلًا يحاصر أبناء حي التضامن.

ولنفهم أكثر مدى التهميش الذي تعيشه هذه المنطقة وسكانها نورد بعض الأرقام الواردة في الشريط الوثائقي الاستقصائي «حاسس بلي صاير» (2021، إنتاج: إنترناشيونال أرت-تونس، إخراج ألفة لملوم وميشيل ثابت)¹⁵ الذي يستعرض بعد عشر سنوات من ثورة جانفي 2011 إخفاقات السياسات العمومية الموجهة للشباب في منطقتي التضامن ودوار هيشر. يشهد حي التضامن كثافة سكانية كبيرة إذ يبلغ عدد قاطنيه 84 312 نسمة موزعين على 3,372 كيلومتر مربع، ويتميز بتريكية سكانية يهيمن عليها الشباب فنسبة الذين تقل أعمارهم عن 29 سنة تبلغ 47,02%، وبنسب بطالة مرتفعة تصل 19,5% وتتجاوز بكثير المعدل الوطني: 14,82%. تتفاقم معضلة البطالة عندما يتعلق الأمر بأصحاب الشهادات الجامعية حيث تبلغ نسبة العاطلين منهم 27,88% أي أعلى بكثير من سبع نقاط مقارنة بالمعدل الوطني: 20,06%. فضلا عن البطالة يعاني جزء كبير من شباب الحي من ضعف الموارد المالية لعائلاتهم: 27,7% من آباء فئة 18-35 سنة هم عمال يوميون، و80% من الأمهات ربات بيوت. يضاف إلى كل هذا التهميش وضعف حضور الدولة وإنفاقها العمومي، فعلى الرغم من الكثافة السكانية للمنطقة وتراكم مشاكلها الاجتماعية والاقتصادية لم تتجاوز ميزانية الاستثمار البلدية 221 933 ديناراً في سنة 2020 وهو مبلغ أكثر من ضئيل ويحمل دلالات كبيرة حول التفاوت والتمييز خاصة إذا ما قارناه بالميزانية المرصودة للاستثمار في منطقة أخرى تقع ضمن نفس الإقليم وعدد سكانها مقارب لعدد سكان حي التضامن: بلدية المرسى التي بلغت ميزانيتها في نفس السنة 5 171 000 ديناراً. نفس الملاحظة فيما يتعلق بالميزانية المخصصة لدعم الأنشطة الرياضية: 10 938 دينار في حي التضامن مقابل 146 476 دينار في المرسى.

1. تأثير البطالة على نفسية العاطل عن العمل وعلاقته بمحيطه

التأثير النفسي للبطالة

تعرف تونس منذ أواخر القرن العشرين أزمة بطالة متفاقمة أكبر ضحاياها هم الشباب والشابات على اختلاف مستوياتهم التعليمية وبيئاتهم الاجتماعية-الاقتصادية مع وقع أقوى للأزمة على الشباب من حاملي الشهادات الجامعية التي أصبحت بطالتهم بنوية والشباب عموماً في الهوامش (الولايات الداخلية و«أحزمة الفقر» المحيطة بالمدن الساحلية الكبرى). استدامة الأزمة وتضاعف أعداد العاطلين عن العمل خلال العقدين الأخيرين صنع نوعاً من «الاعتیاد» لدى السلطات العمومية التي تتعامل مع هذه الأزمة المستدامة على أنها مشكل عادي تتحدث عنه للراي العام باستعمال أرقام ونسب ورسوم بيانية باردة فيغيب الوجه الإنساني للبطالة ولا تحظى تأثيراتها على الحالة النفسية للشباب/ة العاطل/ة عن العمل. لذا حاولنا من خلال هذه الدراسة ان نستكشف هذا الجانب النفسي الذي لا يحظى بالاهتمام الكافي، ورددنا من خلال إجابات المستجوبين والمستجوبات الآثار النفسية المشتركة في المجموعات البورية الثلاثة وكذلك الآثار التي قد تكون خاصة بكل مجموعة أو جنس.

15 Sentir ce qui se passe | Un docu sur la jeunesse en Tunisie. Disponible sur Youtube: <https://bit.ly/3k3V8M9>

- العطوبة والإحساس باللاجدوى

كلما زادت فترة البطالة - خاصة ان لم تقطعها فترات من النشاط المهني حتى المؤقت والهش- كلما تولد لدى العاطل عن العمل الإحساس بأنه لا فائدة من وجوده وجهوده، وانه على هامش الحياة وكل ما يفعله انه يزيد من أعباء أسرته. يفقد تدريجيا تقديره لذاته وكذلك الأمل في تحسين أوضاعه ويحسن ان لا قيمة له في حسابات المجتمع والدولة وسياساتها العمومية. طبعاً هذا الإحساس ينمي الإحساس بالإحباط ويثبط عزيمة الشاب العاطل عن العمل ويفقده القدرة والرغبة في تطوير امكانياته ومعارفه وخبراته مما قد يديم حالة البطالة ذاتها ويجعل الخروج منها أصعب.

لسعد: نفس النهار، نفس العباد، نفس الحاجات تبقى تعاود فيها كل نهار

جيهان: تحس ماكش فعال في المجتمع، ما عندكش موارد مادية باش تعمل حاجات، باش تطور روحك، ناقص برشا حاجات، باش تقعد ديما تاخوا فلوس من عند والديك، باش تحس روحك ديما كأنك حاجة زايدة، قاعد تاخوا في فلوس، ماكش قاعد تتج، قاعد تستهلك موش قاعد تتج

- خيبة الأمل والندم

لا يخفى على الطلبة التونسيين ان البلاد تعيش أزمة بطالة خريجي الجامعات منذ سنوات طويلة وانه لا حلول جذرية في الأفق، لكن الانسان يحيا بالأمل وبفكرة «هذا يحدث للأخريين» وبفكرة الخلاص الفردي. هذا الأمل سرعان ما يصطدم بالواقع المعيش خاصة بالنسبة للمتخرجين من شعب جامعية ضعيفة الأفق التشغيلية و/أو المنحدرين من مناطق وبيئات اجتماعية-اقتصادية لا «ظهر» يسندها ولا موارد مالية تمكنها من إيجاد بدائل. وبعد فرحة التخرج والتخلص من تعب الدراسة والمواصلات وضغط الامتحانات يدخل أغلب المتخرجين في دوامة البحث عن الشغل ومقابلات التشغيل واجتياز المناظرات والمرور بعدة وظائف مؤقتة، الخ.

مروى: تبدا متوقع و انت تقرى الي انت باش تخدم ديراكت معناها. أنا وحدة مالناس في الباك جيت ناخوا شعبة قصيرة على أساس باش نختصر الأعوام ونخدم يعني ياخي بالحق تتصدم بالواقع مبعد و باش تقعد بطال.

وكلما طالت فترة البطالة وصارت تحسب بالسنوات لا بالأشهر والأسابيع، كلما يبدأ الشاب المتخرج في التساؤل حول وجهة اختياره وفائدة شهادته الجامعية، وفي الكثير من الأحوال يتحول هذا التساؤل إلى ندم صريح عبر عنه الكثير من المستجيبين الذين استكملوا تعليمهم العالي.

جيهان: تقعد تلوم أمك وبوك. كان هز عملك فورماسيون . تولي تلوموا: علاش هزيتني تقرى؟ خاطر ديما الأولياء يقلك امشي أقرى كمل قرابتك . بيذا هو يعرف الي موش باش توصل وتلقى فيها خدمة أما يقلك ال كمل أقرى وخوذ شهادة. أما هوما الآباء عندهم هوما عندك شهادة خير ملي ما فماش

محمد علي: كان ينجم بوجهك توجيه آخر . الحاجة الي انت تحبها . حاجة تكون متجهة دبراكت للخدمة . موش لازم عليك تقعد ثلاثة سنين وتضيع الوقت.

مروى: أي ندمت كان مشيت عملت صنعة، فورماسيون خير . خير ملي مشيت للفاك . خاطر مافماش خدم .

هذه المشاعر السلبية تزداد حداثها عبر السنوات ولا يقتصر تأثيرها على الضغط النفسي والإجباط بل انها تسبب تدريجيا في فقدان الشاب العاطل عن العمل لثقته في نفسه، فالمعارف التي اكتسبها خلال تعليمه تتبخر تدريجيا حتى انه في بعض الحالات يسائل نفسه ان كان قادرا حقا على ممارسة الوظائف التي تؤهله لها دراسته الجامعية.

حلمي: تغيير حتى القرابة الي تقراها ولا كنت تقرى فيها بطول المدة تتساها ماعادش تعرف حتى كيفاش تخمم ، كيفاش تخدم. كل شي يجبس. معادش تفهم حتى شي.

مروى: حتى باش تمشي لخدمة أخرى تولي تقول زعمة انا مازلت نجم، زعمة نخدم ، خاطر حاس روحك نسيته ديجا باش يعملك أنروتيان هو وباش يلقاك ناقص في برشا حاجات لازمك تعاود تقرى الكور من اول وجديد، وتحضر الي قريتنا و حفظوا الكل باش ترجعلوا الكل وما ترجعش للنيفو اللي كنت فيه

-الإحساس بالوهن والمرض-

التأثيرات النفسية للبطالة تتفاقم بطول المدة وانسداد الآفاق وقد تتطور - كما لا مسنا في عدة إجابات - إلى إرهاق واحساس بالضعف ونقص في الطاقة الجسدية و«توهم» الإصابة بأمراض.

خليل: ترصيلك بش تشد الدار، عبارة مرض، مال شنوة ، مرض .

سناء: تحس روحك أكبر من عمرك، أي قاعدة في الدار تحس روحك ماكش... تحس روحك ترزن ولا كيفاه.

بالمقارنة نلاحظ ان هذا الإحساس يحضر أكثر لدى المستجوبات خاصة في مجموعة العاطلات اللواتي لا يحملن شهادات جامعية، ويمكن تفسير هذا الأمر بأن هذه الفئة تقضي وقت أطول في المنزل (لأسباب ثقافية تتعلق بمدى تسامح الأسرة مع تواجد بناتها في الفضاء العام بدون مرافقة أو «سبب» عملي) مقارنة بالمستجوبين الذكور وحتى المستجوبات حاملات الشهادات العليا، فحالة العطوية تزداد وطأة مع البطالة وعدم مواصلة الدراسة او متابعة دورات تكوينية.

غادة : انا كي مشيت مشا في بالي حكاية قلب والا حاجة، كل ما نمشي يقولولي ما عندك شي، حكاية نفسية وتتعدى.

مروى: البطالة والفلوس هي الحكاية الكل، اخر الشهر كي ما ييداش عندك فلوس تبدا تابعة وفي حالة وما تخرجش من الدار، كي تبدا عندك فلوس باش تتحرك.

طبعاً ليس هذا الإحساس بالمرض مجرد هلاوس أو تمثلات، فحالة العطالة والإحباط والتفكير الدائم في مخارج وحلول تؤثر على النوم والتغذية والحيوية الجسدية وحتى الوزن. كما ان حالة الفراغ والبحث عن طرق لتخفيف الضغط النفسي تجعل بعض المستجوبين بلجأ إلى استعمال مفرط للمهدئات والمخدرات والتدخين بشراهة، الخ.. وهذه سلوكات لها كلفتها الصحية الجسدية على مدى متوسط أو طويل.

- الخجل

المستجوبون في المجموعات البؤرية الثلاثة هم في مرحلة عمرية تفترض انهم نشطين اقتصادياً ومستقلين مادياً، لكن بطالتهم وحالة العطوبة التي يعيشونها تفرض عليهم تبعية مادية نسبية أو كاملة لعائلاتهم، خاصة وان الدولة لا توفر منح ومساعدات عينية للعاطلين عن العمل تحفظ كرامتهم وتمكنهم من البحث عن فرص جديدة. هذه الوضعية لا تمنع العاطلين عن العمل فقط من تحقيق ذواتهم وتلبية احتياجاتهم الخاصة وفق أذواقهم ورغباتهم، بل انها تخلق لديهم شعوراً مستمراً بالخجل يصل إلى حد الإحساس بالعار في بعض الحالات. وهكذا تنزاح المسؤولية تدريجياً عن الدولة وسياساتها لتنتقل إلى العاطل عن العمل «الفاشل» الذي «لا يبذل جهداً كافياً» وتنقصه «روح المبادرة» التي تمكنه من «الخلاص الفردي» عبر بعث مشروعه الخاص.

ولنا ان تتخيل وطأة هذا الإحساس كلما طالت مدة البطالة وتقدم سن العاطل وزادت أسئلة المحيطين به وتناقص تفهم العائلة للوضع.

كريم: خليني نحكيلك على روحي، بابا نقلو اعطيني ، يعطيني الفين ويقلي برى اخدم على روحي، يطيشهم راهو ألفين يذلك عليهم

وأئل: الواحد ما تباش يمشي امي اعطيني دينار وُل اعطيني 20 الف، تخرج تجيب مصروفك وترّوح.

حلمي: النظرة متاع العايلة للراجل من شيرة أخرى. راجل لازمك تتصرف خويا و تخرج تخدم مالا باش راجل انت..

سنا: مثال تحب على حاجة متجمش تطلب فلوس على خاطر انت ماكش تقري ماكش تقري ، ماكش تعمل في حتى شيء

مروى : تحس روحي اللي انت مازلت عالية عليهم ، أمك و بوك ، معناها وصلوك و قروك و عملوك هاذا الكل ، تحس روحي كايني انت تعسف عليهم ، يبقو يصرفو عليك ، كملت تخرجت نورمالون راك لقيت خدمة و تخدم و تحاول ترجع الجميل اللي عملوه معاك

من خلال أجوبة المستجوبين نستشف ان هذا الشعور مشترك بين المجموعات البؤرية الثلاث لكن حدته قد تختلف حسب المستوى التعليمي والجنس. فمثلاً نلاحظ ان تمثل هذا الشعور أقوى لدى المشاركين في مجموعة العاطلين عن العمل الذين لا يحملون شهادات مقارنة

بمجموعة العاطلين من المتخرجين من الجامعات، وهذا قد يفسر بكون حاملي الشهادات قد بذلوا جهدا إضافيا مقارنة بالمنقطعين عن الدراسة مبكرا مما يخفف وطأة الخجل ويزيد من تفهم العائلة للوضع.

ولئن لامسنا لدى أغلب المستجوبات نفس الشعور بالخجل فيبدو انه اقل وطأة مقارنة بالذكور فعلى الرغم من التغيرات الثقافية وتطور حضور المرأة في النسيج الاقتصادي والفضاء العام مازال جزء مهم من المجتمع التونسي يعتبر ان المرأة مهما كان عمرها ومستواها يتوجب على ذكور العائلة اعانتها في حالة لم تكن قادرة على التكفل بمصاريفها، في حين ان الذكور يجب ان يستقلوا ماديا ويساهموا في إعالة أسرهم وتحمل الجزء الأكبر من نفقات الزواج وما بعده. هناك أيضا تباينات في الإحساس بالخجل من التبعية المادية لدى المستجوبات، فهو عموما أقل عند حاملات الشهادات مقارنة بالمنقطعات عن الدراسة.

محمد علي: حتى العايلة ديما يقولك طفلة ميسالش هو راجل لازم يخدم على روحوا يتصرف أمورك أما ديما الطفلة يعاملوها أكثر شويا خير شويا
سنا: هوما أصلا (تحدث عن عائلتها) كي يشوفوك نفسيا ماكش مرتاح يوليوا ما يجبوش يجدهولك و الا يقولك ايا امشي شوف، فركس و اعمل
مروى: هوما يعرفوا ديجا ما عندك حتى حل. شنوة باش تعمل يعني، قاعدين يصرفو عليك هوما ديجا
غادة: انا قريت وقعدت في الدار، صحيح مأثرة فيا شوية انا نمد يدي لدارنا ونقلهم اعطيوني مصروفي أعطيوني باش نشري اما ما عنديش مشاكل مع العايلة .
مروى: أنا معرسة ، ناخوا مصروف من عند راجلي. ملي عرست ما عملت حتى حاجة اندخل الفلوس.

- العزلة

هذا الشعور بالخجل على اختلاف المستوى التعليمي والجنس يجعل الكثير من المستجوبين، بقصد أو بدونه، يحاولون «الافتاء عن الأعين» والانسحاب من الحياة الاجتماعية وحتى العائلية. هذا الانسحاب قد يكون جزئي أو وقتي وقد يتحول في بعض الحالات إلى عزلة شبه كاملة. عبر الكثير من المستجوبين عن أسباب وأشكال وتظاهرات هذا الانسحاب. هناك من يقضي أغلب الوقت في غرفته الخاصة أو في المنزل بصفة عامة (خاصة عند الإناث) أو في مقهى الحي لتفادي «اظهار» عطااتهم و«عيون الناس» والأسئلة المحرجة والمتكررة في محيطهم (عائلة، جيران، أصدقاء) وحتى لتجنب الاحراج الذي قد يسببه لهم الخروج مع الأصدقاء للفسحة أو التسوق بدون أن يكون لهم ما يكفي من مال. الرغبة في التواري على الأنظار قد تأخذ أشكالا أخرى مثل في الافراط في استهلاك المخدرات والمهدئات أو الاستعمال المكثف لمنصات التواصل الاجتماعي والانترنت عموما. هذه العزلة «الاختيارية» (الاضطرابية في الحقيقة) تفاقم من جهة الآثار النفسية للبطالة، ومن جهة أخرى تحد بشكل كبير من شبكة علاقات الشاب

العاطل مما قد يحرمه من معلومات هامة وفرص شغل وأفكار جديدة قد تساهم في فتح افاقه وتحسين وضعه.

سناء: تصور روحك تمشي تعمل شوبينغ و معندكش حتى فرنك في جيبك؟ باش تخرج مع صحابك تقطر وانت ما عندكش فلوس باش تخلص على روحك. تستنى في العباد تخلصك .

رجاء: ديما في الدار ديما مسكرة على روحي، شادة التالفون

محمد: تدخل انت لداركم، يقلقوك. هاك تخرج من الصباح لليل ما تخدمش . كل مرة كيفاش بالله سنة الفرق بين تقعد في الدار تتفرج في التلفزة وآل بش تخرج للقهوة كيف كيف

منذر: بش ما تقعدش حشومة حتى بش ما توريش للعباد الي انت بطال واقف في راس النهج، تمشي للقهوة وتعدليك 3، 4 سوايح خير من تقعدها في الكياس. خاطر كان تقعد في الكياس لعباد باش يقولو شوف شادد البوطو خاطر بطال.

سناء: فما حاجة أخرى خايبة إلى انت تقعد تخصص حياتك الكل للفايسبوك بطريقة يوليلك ادمان. عايش حياة أخرى معناها افتراضية. ماكش عايش الحياة الواقعية. ساعات نفيق تقول أنا موش عايش حتى شي في الدنيا، عايش الحياة الافتراضية . أكأ البروفيل متاع الفايسبوك. تحس روحك عايش في خيال

أشكال الترفيه ومقاومة الضغط النفسي

إزاء التأثيرات النفسية لوضعه الاجتماعي-الاقتصادي يحاول كل عاطل عن العمل الترويح عن نفسه والخروج من دوامة العطوبة بوسائل واستراتيجيات مختلفة منها ما هو مشترك بين المجموعات الثلاثة ومنها ما هو مرتبط بمتغير الجنس و/أو المستوى التعليمي. لكن الأمر ليس بهذه البساطة فنحن نتحدث عن شباب وشابات عاطلين عن العمل ينتمي أغلبهم إلى عائلات ضعيفة أو متوسطة الحال تسكن في منطقة مهمشة تنمويا وتعاني من نقص كبير في أماكن الترفيه والنشاط الفني والرياضي، العمومية منها والخاصة. فضلا عن نقص الموارد المالية وأماكن الترفيه ورداءة خدمات النقل (التي تزيد من عزلة الشباب العاطل في حي التضامن) فهناك حاجز آخر يعترض الشابة العاطلة عن العمل ففي الكثير من الأحيان نجد ان بطالتها وعدم مزاولتها للدراسة يقللان من إمكانية ابتعادها من البيت «بلا سبب». كما عبرت بعض المستجوبات عن التمييز الذي يتعرضن له في مسألة مصروف الجيب اذ تعطي بعض العائلات الأولوية للذكور بما انهم -حسب تمثلها- يخرجون أكثر ولديهم مصاريف أكبر.

جيهان: الاكترية يقلك طفلة أهيكأ قاعدة في الدار حتى ولو كان موش باش تخرج موش باش تسهر كيما الطفل..

فيما يلي أبرز الأنشطة والممارسات التي يلجأ لها المستجوبون للتخفيف من الوطأة النفسية للبطالة والفراغ.

- الشعائر الدينية

اغلب المستجوبين اعتبروا ان الدين (الصلاة، الدعاء، تلاوة القرآن والاستماع له) له تأثير إيجابي على الصحة النفسية فضلا عن أهميته في إمكانية انفراج أوضاعهم. لكن هذا لا يعني ان اغلبهم يؤدون الشعائر الدينية بانتظام، ونلاحظ من خلال تدخلات مختلف المشاركين في المجموعات الثلاث ان المستجوبات على اختلاف مستوياتهن العلمية أكثر تدبنا أو اعتقادا في أهمية الدين من الذكور.

جيهان: اي تبدل من النفسية، برشا عباد كي تصلي تتفرهد. نرجع للصلاة ونتفكر ديني. تشد في ربي وهو موش باش يخليها بيك
 مروى: يخليك تخرج من الواقع إلي اتني فيه يعني معناها تمشي للدنيا الخرى . معناها تقول ربي يعوضني. يعني ثقتك في ربي هي الي باش تخليك تصبر
 سناء: حط قرآن في كيت ما غير مهدئ لا حتى شي

- الرياضة

هناك اجماع في المجموعات الثلاثة على أهمية الرياضة للصحتين الجسدية والنفسية، ورغبة في ممارستها، لكن عدم توفر ملاعب ومسالك صحية وغيرها من البنى التحتية الرياضية العمومية المجانية يصعب ممارسة هذا النشاط، أما القاعات الخاصة فأسعارها تتجاوز بكثير إمكانات أغلب العاطلين عن العمل. وأشار بعض المستجوبين - ذكور وناث- إلى ان الرياضة تتطلب أيضا معدات وملابس خاصة ونظاما غذائيا مناسباً مما يجعلها أحيانا نشاطا مكلفا ماديا. يضاف إلى كل هذا ما عبر عنه البعض من نقص الشعور بالأمن عند ممارسة الرياضة في الهواء الطلق في الصباح الباكر او الليل خوفا من الاعتداءات و«البراكاجات» خاصة بالنسبة للإناث.

سناء: ما فماش *Entourage* إلي يشجعك. نحب قروب هكا تشجعوا مالقيتش .
 حلمي: باش تدخل لصالة تترانا أقل صالة 80 دينار وانت بطال معنك ما تعمل حتى باش تاكل: سبور؟؟؟ ههه
 أحمد: فما شكون يخرج الصباح يعمل مارش ييراكيوه والله أمي و بنت خالتي خرجوا نحوا تليفون بنت خالتي في الصباح

هناك اقبال من العاطلين غير الحاملين لشهادات على الرياضة خاصة كمال الأجسام والرياضات الفردية، والبعض منهم سبق له النشاط في جمعيات وحتى المنتخبات الوطنية لكن ظروفهم الصحية وقلة الإحاطة تجعل اغلبهم لا يكمل المشوار ولا يجد من يساعده على تطوير قدراته. كما أكدوا أن انتمائهم المناطقي والطبقي كانت له عواقب في تعطيل مسيرتهم: محسوبة، اقضاء، نقص إمكانيات، الخ.

على أساس بش نخرج ياخي ما خرجونيش ياخي خرجو واحد اخر على خاطر بيّو في”
الفيديراسيون.

خليل: انا مشيت نترانا في حمام الأنف كي سمعو بيّا من حي التضامن، أنا جيت بش
نخرج البرة ستاج بطلو خاطرني من حي التضامن

- ارتياد المقاهي

بالنسبة لارتياد المقاهي فهناك فرق واضح في تمثّل طبيعة هذا «النشاط» حسب متغير الجنس،
فلقد لاحظنا ان العاطلات -جامعيات وغيرهن- يعتبرنه ضربا من الترفيه يقمن به في فترات
متباعدة نسبيا، في حين انه يمثل لدى أغلب المستجوبين الذكور جزء من الروتين اليومي وحتى
ضرورة للتهرب من العائلة .

مروى: أي تخرج تبدل الجو وتقابل العباد. تحل آفاق تحكي مع العباد أكيد باش تحسن
نفسيتي.

محمد علي: أحنا في حوم شعبية كيما حي التضامن المكان الترفيهي الوحيد إلي نمشيولوا
هو القهوة. كل يوم معناها يومييا. معناها انت تحب تحسب روحك ت تفرهد شوييا تمشي
للقهوة. طريح رامي تفرج في الكورة. أهوكا تضيع ثلاثة أربعة سوايع و تروح . معناها انجموا
نقولوا إلي هي تبدل المود لفترة معينة و أكهو

منذر : بش ما تقعدش حشومة حتى بش ما تو ريش للعباد الي انت بطال واقف في راس
النهج، تمشي للقهوة وتعدليك 3، 4 سوايع خير من تقعدها في الكيّاس. خاطر كان تقعد في
الكيّاس لعباد باش يقولو شوف شادد البوطو خاطر بطّال.

- وسائل التواصل الاجتماعي

مجموعة العاطلين عن العمل من أصحاب الشهادات هي الأكثر استعمالا لوسائل التواصل
الاجتماعي، ليس لغرض الترفيه وتجزية الوقت فقط بل كذلك للبحث عن عمل وتطوير
معارفهم في اختصاصاتهم الأصلية أو تعلم أشياء جديدة او لمتابعة مدربي «التنمية البشرية».
ومن أهم المنصات المستعملة فيسبوك ويوتيوب وتيك توك وإنستغرام. المستجوبات اللواتي
لا يحملن شهادات جامعية يقضين هن أيضا وقتا طويلا في منصات التواصل الاجتماعي لكن
لغرض الترفيه وملء الفراغ أساسا. لا يبدو من خلال شهادات عينة الذكور الذين لا يحملون
شهادات جامعية ان وسائل التواصل الاجتماعي تلعب دورا هاما في حياتهم اليومية، بعضهم لا
يملك هاتفا ذكيا أصلا.

سنا: صحيح هو حاجة باهية وحاجة خايفة . حاجة باهية انوا انت تحب تستنفع تحب تتعلم حاجة أي حاجة تحب عليها تلقاها ، حلو أي حاجة باش تعمل وقت متاع كوتشينغ حتى نفسانيا . تعمل أبونومون لكوتش كبار يفيدوك في حياتك . حاجة تفيدك . أما فما حاجة أخرى خايفة إلي انت تقعد تخصص حياتك الكل للفايسبوك بطريقة يوليك ادمان .

ولاحظنا ان هناك وعي لدى الكثير من المستجوبين (في مجموعتي المتخرجين والعاطلات بلا شهادات) بأنهم يقضون ساعات طويلة في هذه المواقع بشكل يشبه الإدمان وان ما يفعلونه هو بشكل أو بآخر احدى استراتيجيات الهروب من واقعهم المعيش. كما عبر بعضهم عن تأثير عكسي لهذه الوسائل التي يفترض انها ترفيهية، فهي قد تسبب في زيادة تأزهم النفسي لدى اطلاقهم على منشورات وصور وفيديوهات لأشخاص يعيشون حياة الترف ويظهرون سعادتهم وثرانهم (مناسبات، أنشطة ترفيهية، رحلات ملابس، اكسسوارات، سيارات جديدة، الخ) في حين ان المستعمل يعاني من الفقر والبطالة وانسداد الآفاق وحتى العزلة الاجتماعية.

محمد علي: الناس حتى إلي نحكي معاهم والاصحابي الإنستغرام إلي هو نشوفوا فيه حياة أخرى وانت تبدا بطال متجمش توفر نفس العيشة أديكا ونفس ريتم. التصاور و الستوريات والناس الكل تسهر واللبسة

- الكحول والمهدئات والمخدرات

هنا أيضا نلاحظ تفاوتات ذات دلالة حسب متغير الجنس والمستوى التعليمي في استهلاك هذه المواد. مثلا أغلب المستجوبات، سواء اللواتي تخرجن من الجامعة أم لا، لديهن موقف رافض لاستهلاك الكحول والمخدرات، والمهدئات بشكل أقل، أساسا لاعتبارات دينية، وكذلك لاعتقادهن بلا جدوى هذه المواد ومخاطر الإدمان التي قد تسبب فيها. مواقف العاطلين الذكور تبدو أكثر تنوعا، فلئن أكد أغلبهم انهم لا يستهلكون المهدئات فإن بعضهم يستهلك الكحول و/أو «الزطلة» أو يتفهم الأسباب التي تدفع الآخرين لاستهلاكها، مع وعي أكثرهم بمخاطر الإدمان ومحدودية فعالية هذه المواد في الهروب من الواقع الصعب الذي يعيشه العاطل عن العمل. أما مجموعة الذكور العاطلين عن العمل من غير حاملي الشهادات الجامعية فهي الأكثر اقبالا على استهلاك المخدرات والمهدئات، ويرى الكثير من المشاركين فيها انها شبه ضرورية لتحمل ظروفهم المعيشية وعدم الانهيار تماما. أغلب المستجوبين في هذه المجموعة لا يستهلكون الكحول لأسباب لا تتعلق بالجانب الديني أو بالوعي بالمخاطر بل من منطلق اقتصادي بحت، اذ يرى بعضهم ان المال الذي ينفقونه على الكحول يمكن أن يوفر لهم متعة أكبر وأطول ان اشترؤا به مخدرات ومهدئات.

تأثير البطالة على علاقات المستجوبين بمحيطهم

سعيننا من خلال هذه الدراسة أن نفهم كيف تنعكس وضعية البطالة على علاقة الشاب العاطل عن العمل مع المقربين منه. نتحدث هنا عن العائلة-المصغرة والموسعة- والأصدقاء والعلاقات العاطفية. ماهي تمثلات المستجوبين لهذه العلاقات وهل تتأثر بمتغيرات المستوى التعليمي والجنس؟

- تأثير البطالة على العلاقة مع العائلة

ما من شك ان العائلة هي الرابط العلائقي الأكثر تأثيرا في الحياة اليومية للعاطل عن العمل، فهي الإطار الذي يقضي وسطه أكثر ساعات اليوم، والذي يوفر له مستوى تختلف درجته من الدعم المادي والمعنوي. كما انها تتأثر بالانعكاسات المادية والنفسية لبطالة أحد أفرادها خاصة عندما تكون ضعيفة الحال و/أو كثيرة العدد و/أو بدون معيل. هذا الاحتكاك اليومي المترافق مع عطوية مزمنة بدون أفق واضح يخلق علاقة معقدة بين العائلة والشاب العاطل عن العمل. طبعاً تختلف هذه العلاقة من أسرة إلى أخرى لكن هناك تشابه وتقاطعات في شهادات المستجوبين في كل واحدة من المجموعات البؤرية الثلاث، وهناك أيضا اختلافات ذات دلالة في تمثل كل مجموعة لتأثير البطالة على هذه العلاقة. تتلمس من إجابات أغلب المستجوبين إحساس قوي بأنهم يشكلون عبء ماديا على العائلة وان العلاقة تزداد توترا كلما زادت فترة البطالة وقد تتخذ أشكالا عنيفة ومهينة في حالات معينة. كما لا حظنا ان هناك فروقات كبيرة نسبيا في علاقة العائلة بالشاب العاطل عن العمل حسب مستواه التعليمي ونوعه الاجتماعي.

من خلال تحليل مختلف الشهادات يتبين بوضوح ان مجموعة الذكور غير الحاملين لشهادات جامعية هي التي تعاني أكثر من توتر العلاقات مع العائلة بسبب البطالة. ويمكن تفسير هذا التوتر الشديد في العلاقات بعدة عوامل : أغلب المستجوبين في هذه المجموعة هم من أبناء أسر فقيرة وفي كثير من الحالات لديها أكثر من فرد عاطل عن العمل مما يعني ان كل حالة بطالة تحرم العائلة من جزء من مواردها (أو كلها) وتضيف إلى أعبائها إعالة الفرد العاطل عن العمل، وربما تعتبر العائلة ان وضعية ابنها العاطل عن العمل الذي لم يتم دراسته الجامعية اخفاقا مزدوجا فلا هو حاصل على شهادة قد تمكنه من عمل «محترم» ولا هو استطاع تثبيت أقدامه في سوق الشغل بحرفة أو تجارة تدر عليه -وعلى عائلته- دخلا ثابتا، كما ان احتمال تعرض المستجوبين في هذه المجموعة للسلوكات المحفوفة بالمخاطر (مخدرات، انحراف، عنف، هجرة غير نظامية) كبير مقارنة بالمجموعات الأخرى مما قد يجعل العائلات تقلق من الفراغ الذي تتسم به حياة أبنائها العاطلين وتحثهم على البحث عن عمل حتى تبعدهم عن «التسكع» و«رفاق السوء».

هذا التوتر في العلاقات بين المستجوبين في مجموعة العاطلين بلا شهادات جامعية يدفع أغلبهم إلى البقاء أكثر ما يمكن من الوقت خارج منزل العائلة أو الانزواء في غرفهم لساعات طويلة لتفادي الاحتكاك مع باقي الأسرة قدر الإمكان.

وائل: علاقة، صباح الخير أمي، السلام من بعد تمشي. ترجع في الليل تمشي ترقد هذاك هو.

محمد: تدخل انت لداركم، يقلقوك. هاك تخرج من الصباح الليل ما تخدمش . كل مرة كيفاش بالله شنوة الفرق بين تتعد في الدار تتفرج في التلفزة وأل بش تخرج للقهوة كيف كيف

حسني: انا بابا ما نقعدش معاه درجين على بعضهم سامحوني والله، يا انا يلزم نخرج، يا هو يخرج. بوك، ماذا بيه ما يحكيش معاك جملة.

وتبدو العلاقة مع الأب الأكثر توترا وتعقيدا وهي قد تصل إلى حد العنف الجسدي والإهانة اللفظية والمعنوية، في حين تظهر الأم أكثر تفهما للوضع وتلعب في كثير من الأحيان دور الحامي والوسيط مع الأب لتخفيف الضغط على الابن العاطل:

لسعد: الأم بش تقول لبوك راهو مشى وتبع ومالقاش و... خاطر بوك هو مش كيما أمك، بوك ديراكت يقلك اخرج عليا... الأم تحسها كي بش تخرج العشرة متاع الليل، التسعة متاع الليل بش تحسها تقول ولدي قاعد للشر في البرد، بش يصبح؟ ضربوه؟... لأبس؟ متغطي؟ بوك ما على بالوش.

محمد: تقلك تو ربي يفرجها، هذي الأم. ابو يقلك برى اخرج، برى اتصرف، يقلك برى جيب الفلوس وما فماش خدم

كريم: خليني نحكيلك على روعي، بابا نقلو اعطيني، يعطيني الفين ويقلي برى اخدم على روك، يطيشهم راهو الأقين بذلك عليهم

خليل : أنا بابا يسكر عليا الكوجينة (...). ساعة على ساعة ما تعرفش عليه الكف مينين يجيك، المشطة مينين تجيك وراس خويا..

وربما تتأتى هذه القسوة الأبوية من كونه في أغلب الأحيان المعيل الرئيسي والوحيد للعائلة وثانيا بسبب التنشئة الاجتماعية التي ترى ان التعامل بقسوة مع الأبناء الذكور يصنع منهم «رجالا» مسؤولين وأشداء. عموما تبدو العلاقة متقلبة حسب وضع الإبن العاطل عن العمل، فعندما يتحصل على عمل وقتي ويساهم في مصاريف البيت تتحسن العلاقات بشكل ملحوظ، ولنا ان تتخيل تأثير تغيير المعاملة حسب الحالة المادية على الفرد العاطل عن العمل:

منذر: ربتهم العلاقات مع الدار، كل نهار ونهارو. كيما الطقس نهار باهي ونهار خايب نهار مريقلين معاك ونهار تفيقك امك 6 متاع الصباح بر اخرج، بر فركس على خدمة.

سعد: كي عندي فلوس بابا يحطني فوق راسو، ما عندكش فلوس، تولي عايق وماكش عبد، وعاملها بالعاني وانت ما تحبش تخدم..

تأثير البطالة على علاقة العاطلين والعاطلات من أصحاب الشهادات العليا بعائلاتهم أقل وطأة مقارنة بغير الحاملين لشهادات. يمكن القول ان العائلة في هذه الحالة تأخذ بعين الاعتبار

الجهد الذي بذله ابنها خلال سنوات الدراسة الطويلة وان بطالة أصحاب الشهادات ظاهرة عامة وقديمة تتفاقم منذ قرابة ربع قرن، كما ان هناك قناعة وأمل بأن استكمال التعليم يبقى دائما نجاحا وأمرًا جيدا يسهل الوصول إلى وظيفة مريحة وقارة. نتلمس هذا التفهم من خلال عدة شهادات وردت على ألسنة المستجوبين والمستجوبات في هذه المجموعة:

سناء: هوما أصلا كي يشوفوك نفسيا ماكش مرتاح بوليو ما يجبوش يجدهولك والا يقولك أيا فركس واعمل

مروى: هوما يعرفوا ديجا ماعندك حتى حل. شنوة باش نعمل يعني، قاعدين يصرفو عليك هوما ديجا

غادة: انا قرئت وقعدت في الدار، صحيح مأثرة فيا شوية إني نمد يدي لدارنا ونقلهم اعطوني مصروفي أعطوني باش نشري اما ماعنديش مشاكل مع العائلة .

لكن هذا لا يمنع ان تقييم الآراء في العلاقة يختلف قليلا حتى صلب هذه المجموعة، فالعاقلون الذكور يحسون بحرج أكبر من تكفل عائلاتهم بمصاريفهم مما يخلق لديهم ضغط أكثر حتى وان لم تعبر العائلة عن ضيقها بهذا الوضع.

تعامل العائلة مع المستجوبات سواء ان كنّ صاحبات شهادات أم لا يبقى أفضل نسبيا من معاملة الذكور، وربما يعود هذا الاختلاف إلى العرف المجتمعي الذي يرى ان المرأة تبقى على الرغم من كل شيء من مسؤولة ذكور عائلتها (أب، اخوة، خطيب، زوج) وانه لا يمكن اجبارها على الخروج إلى العمل والإصرار على ذلك، فضلا عن القناعة التي ترى انه في «اسوء الأحوال» سيأتيها زوج يتكفل بنفقاتها. لكن هذه «المعاملة الخاصة» لها ضريبتها بالبطالة قد تجعل العائلة أقل «تسامحا» مع خروج الشابة العاطلة إلى الفضاء العام، كما ان قضاء أغلب الوقت في المنزل يقلل أو يحرم الشابة تماما من مصروف الجيب الذي كانت تتلقاه عندما كانت تدرس مثلا:

ماعادش تنجم تطلب كيما كنت تقري. كي تقري تطلب باستحقاق أما كي تبدا بطل معادش تنجم تطلب حتى شي. تبدا ترى في الحاجة وتسكت.

غادة: صارتلي طرفة، وقتها باش نخرج وحاجتي بفلوس وأمي تبجل في خويا خاطر و طفل يمشي للقهوة قتلها علاش تعطي فيه في مصروف وانا لا، قتلي لا خاطر هو يتكيف قتلها حتى انا تولي تتكيف باش تعطيني مصروف هه..

جيهان: الأكتربة يقلك طفلة أهيك قاعدة في الدار حتى ولو كان موش باش تخرج موش باش تسهر كيما الطفل

في مجموعة العاطلين عن العمل من حاملي الشهادات العليا لاحظنا ان هناك اتجاه عكسي في مسألة اللوم، فعدة مستجوبين لاموا عائلاتهم (وكذلك المحيط العلائقي الموسع) لأنها اما

أصرت على استكمالهم لدراساتهم عوض توجيههم نحو التكوين المهني والخروج في سن مبكرة إلى سوق الشغل أو لأنها لم توفر لهم النصح الكافي خلال مرحلة التوجيه الجامعي:

محمد علي: أنا كان جيت لقيت شكون كبير يوجهني راني مايش في نفس الحالة.

جيهان: تقعد تلوم أمك و بوك. كان هز عملك فورماسيون . تولي تلوموا: عالش هزيتني نقرى؟ خاطر ديما الأولياء يقلك امشي أقرى كمل قرابتك . بيذا هو يعرف الي موش باش توصل وتلقى فيها خدمة أما يقلك ال كمل أقرى وخوذ شهادة. أما هوما الأولياء عندهم هوما عندك شهادة خير ملي ما فماش

الملفت للنظر انه وعلى اختلاف محتوى شهادات المستجوبين في المجموعات الثلاث فيما يخص العائلة المصغرة فهناك تشابه كبير يرقى إلى الإجماع عندما يتعلق الأمر بالعائلة الموسعة، التي يرى اغلب المشاركين انها لا تقدم يد العون بل تمثل عامل توتر وضغط على العاطل وعائلته المصغرة. فسؤال أفراد من العائلة الموسعة عن وضعية العاطل وتقييم اختياراته والاستشهاد بأمثلة لأفراد آخرين من العائلة تحصلوا على عمل بشكل سريع بشهادة أو بدونها وحققوا نجاحات مادية ومهنية يمثل احراجا للعاطل عن العمل ويزيد حسرة العائلة المصغرة وقد يصنع توتر بينهما، وقد يكون الأمر مجرد تمثل من العاطل وحساسية مفرطة تتنامى بمرور الوقت وطول فترة البطالة. ونلاحظ ان التقييم السلبي للعلاقات مع العائلة الموسعة أكثر حدة في مجموعة حاملي الشهادات وهو ما يعزز فرضية الحساسية المفرطة التي تخلقها البطالة لدى هذه الفئة.

سناء: بالطبع، فما ساعات يتلوموا، آا ولدك تخرج؟ آا شنية لقاش خدمة؟ آا بنتك صايا قداش عندها ملي كملت؟ لقاتش خدمة؟ ديما ولد فالن هوكا خدم فيسع. شبك انتي ما قريتش أكأا؟ ديما تلقاها الحكايات هذيا في العايلات . بطريقة تولي اتأثر.

حلمي: يمكن الحاجات هذوما يزيديا ما بين النساء أكثر. مثال يقلك وحدة ولدها ما قراش وخدم ووحدة ولدها قرى وما خدمش وهي كانت تغزل فيها تبدا ولدها يتخرج من هنا ههه ولدي عندوا كرهبة ودار

رجاء: خاصة كي بيذا ابو من النوع اللي يتعمر فيسع، هوما يقولوا ما قدمتش وهو يقلهم ما قدمتش، هوما يقولوا ما صببتش في بيرو الشغل وهو يقلهم ما صببتش، هاو فما كونكورات، هاو فما ندرا شنوة، يا بابا راو مش صحيح راو الكونكور اللي تدخلو بيذا مسكر.. لا فما اما انت قرابتك مش باهية وما عرفيتش تختاري..

- العلاقة بالأصدقاء

يفترض ان الأصدقاء يشكلون أحد أهم عناصر المحيط العلائقي للشباب/ة وانهم يلعبون دورا في تخفيف اثار البطالة وما تخلقه من أزمات للعاطل عن العمل، لكننا نستشف من خلال إجابات أغلب المستجوبين والمستجوبات في المجموعات البورية الثلاث ان الأمر ليس بهذه البديهية. أولا، نلاحظ ان روابط الصداقة تتحلل تدريجيا -خاصة عند حاملي الشهادات العليا- كلما طالت

مدة البطالة. ثانيا هناك خيبة أمل عامة من الأصدقاء واحساس بالتجاهل. ثالثا، هناك اعتقاد قوي لدى اغلب المستجوبين والمستجوبات بأن الجانب المادي مؤثر في شكل العلاقة وممتاتها مع الأصدقاء. لاحظنا كذلك ان الأصدقاء بالنسبة لمجموعة العاطلين الذين لم يكملوا تعليمهم الجامعي هم أساسا «أولاد الحومة» (أبناء الحي الواحد) نظرا لعدم مواصلة التعليم خارج المنطقة والتعرف على أصدقاء جدد وقلّة فرص العمل مما يعني نوعا من العزلة الجغرافية ومحدودية شبكة العلاقات، كما ان تشابه الأوضاع المادية المتردية للعاطلين في نفس الحي يعني قلّة الموارد وإمكانية تقاسمها مما يصنع نوعا من الريبة والشك في نوايا الآخر (طمع، «تخديم مخ»).

كريم: ما عندكش فلوس ما تجمش تعمل أصحاب. واحد يصاحب واحد بش يستقتات متّو كي تبدي أقل متّو علاش يصوحب فيك، صاحبي كقصيت عليه العلفة حتّى صباح الخير ما عاتش تسمعها متّو. صارتلي أكثر من 5، 6 مرّات وما ترتبّاش.

خليل: تّوة أنا أبسط حاجة أنا مش ولد حومتكم نمشي بحذ صاحبي في سكرة ما نخم في شيء واحد اخر يقلك هذا جاء طامع فيّا. انا صاحبي نمشيلو 3 ولا 4 مرات، المرة الجاية بش يحسبها يقول هذا جاي ما عندوش.

وفي مجموعة حاملي الشهادات العليا نستشف ان علاقات الصداقة اكثر امتدادا «جغرافيا» بحكم ان المستجوبين والمستجوبات درسوا خارج الحي الذي يسكنونه وتواصلوا مع طلبة من مناطق أخرى، لكن متانة هذه العلاقات نسبية جدا وتتأثر كثيرا بالوضع المادي والمهني، مثلا عندما يكون كلا الصديقين في نفس الوضعية الاجتماعية-الاقتصادية (البطالة أو العمل المؤقت والهش) فإن احتمال استمرار الصداقة والتواصل الدائم أكبر، لكن كلما اتسعت الفوارق الاجتماعية-الاقتصادية بين الصديقين مع حصول أحدهما على فرصة عمل جيدة ودخل قار تفتقر العلاقة تدريجيا، وهنا لا يمكن تحديد سبب الفتور، هل هو «ارتقاء» أحد الطرفين إلى شريحة اجتماعية-مهنية أرفع وبالتالي تكوين شبكة علاقات جديدة ام تنامي حساسية الطرف الذي بقي عاطلا عن العمل وتعمق احساسه بالإخفاق خاصة عندما يقارن وضعيته بوضعية أصدقاء في مثل سنه وخلفيته الاجتماعية ومستواه التعليمي. قلّة فرص العمل يخلق أيضا نوعا من التنافس بين «الأصدقاء» من حاملي الشهادات حتى ان بعض المستجوبين يتحدثون على عدم مشاركة أصدقائهم لمعلومات حول عروض الشغل والمناظرات العمومية وفرص التكوين حتى لا ينافسهم عليها الآخرون.

جيهان: الي يلقي خدمة باهية يطفي صاحبو ههه إلي عندو فلوس في جيبوا يطفي صاحبو. حتى كان فما اتروتيتان و لا حكاية .. ماذايه هو تمشي حياتو و يطفيه هو أكا العبد أذاكا. حتى صاح بك الاتيم راو. ديما العباد الكل تخم كان في روحها، يخم كان في رحو وكي يخدم وتمشي في جيبو الفلوس ي بدا يفيس عليك. أنا نخدم وانت بطال.

حلمي: عندي أصحاب زوز ولاد. صحاب أكثر من الأهل. كنا نقروا. هوما يقروا تكوين وديما مع بعضنا. وكي دخلوا هوما يخدموا حتى الكلام معادش يكلموني. السلاز معادش يقولوها.

أما في مجموعة الشابات غير الحاملات لشهادات جامعية فإن تقييم العلاقة مع الأصدقاء أكثر نسبية وتوعا، فهناك من ترى ان البطالة لم تأثر كثيرا على العلاقة وأخريات تعتبرن ان الوضع المادي والاجتماعي مهم جدا على استمرارية الصداقات، مع وجود عامل آخر مهم لدى هذه المجموعة يتعلق بالصعوبة المزدوجة (الموارد المادية والنوع الاجتماعي) في التنقل خارج البيت والحفاظ على العلاقات غير العائلية:

مروى: مش الصحاب الكل ما يتفهموش ، فما شكون يقلك ما عندكش فلوس ايجا نخلص عليك ومش ديما مرة باش يقلك

غادة: انا نحشم باش نخرج مع عبد يخلص عليا

رجاء: بالنسبة ليا انا الا، خاطر فرد génération و عايشين نفس الوضع

رجاء: تلمنا الخدمة والا القرابة ، كي تبعد سايب قليل وين تلقى حد يبقى..

سارة: اي تنجم تبدي قعدتك ما عاdash تحللو ، تبدا انت في حي التحرير وهو يحب يعمل قهوة في اللاك ، انت تهبط للسنتر فيل باش تظطر وهو يظطر في المرسي

عموما هناك نوع من الاجماع على فكرة عدم صمود صداقات ما قبل البطالة وسرعة تأثرها بتغير الوضع الاجتماعي-المهني لأحد الصديقين. فضلا عن توتر العلاقات مع العائلة او فتورها فإن العاطل عن العمل يجد نفسه -أو هكذا يتمثل الوضع- بلا أصدقاء «حقيقيين» مما يعمق عزلته النفسية واثارها، وكذلك يقلل إمكانية التعويل على المحيط العائلي في الحصول على فرص عمل.

- العلاقات العاطفية

المستجوبون في المجموعات البؤرية الثلاثة ينتمون إلى فئات عمرية يفترض انها تعيش فترة زاخرة بالعلاقات العاطفية «المفتوحة» منها و«الرسمية» لكن أغلب الإجابات فيما يخص هذا الجانب تؤكد ان الواقع مغاير تماما. فضلا عن كون شرائح واسعة من المجتمع التونسي ترفض العلاقات الجنسية خارج إطار الزواج -على الأقل بشكل علني- فإن هناك عوامل أخرى تساهم بشكل قوي في «التصحر» العاطفي الذي عبر عنه اغلب المستجوبين. باستثناء ثلاث حالات نجد ان بقية المستجوبين في كل المجموعات ليسوا مرتبطين بعلاقة زواج أو خطوبة، وان العلاقات خارج هاذين الاطارين شبه معدومة. لم يتطرق المستجوبون والمستجوبات إلى الجانب الجنسي الذي لم يطرح في أسئلة الاستبيان بشكل مباشر. وعلى اختلاف المستوى التعليمي تشابهت إجابات المستجوبين بشكل كبير وأظهرت ان اغلبهم يعتبر حالة البطالة (وبالتالي نقص الموارد المالية او انعدامها تماما) عائق رئيسي أمام الدخول في علاقات عاطفية -باختلاف أنواعها- و/ أو استمرارها.

لسعد: تبدا علاقة 3 أيام النهار الرابع تسألك اش تعمل في حياتك، وحدك بش تجبد روحك تعملها بلوكاج وتمشي تشوف وحدة أخرى.

كريم: ما عندكش بش تعمل قهوة، ما عندكش لبسة بش تقابلها ما عندكش تليفون. أنا عندي شهر مش حابب نقابلها.

حسني: طفلة كانت معايا قعدنا مع بعضنا 6 سنين، شتوة الفائدة بش نعرس بيها

ونستشعر من خلال الإجابات ان المستجوبين الذكور يعتبرون انهم الأكثر تضرا من هذه الوضعية فالتنشئة الاجتماعية -حسب تمثلاتهم- تتطلب من الرجل ان يكون الطرف الذي يتكفل بأغلب النفقات والمصاريف سواء تعلق الأمر بالزواج أو بالعلاقات خارجه.

وائل: بطبيعة تأثر، شبيك ما جبتيش شبيك ما عطيتيش باش نعمل حمام كالنساء. أغرز ولد فلان عندي سبادري وولدي سبادريه مقطوع. تصور واحد في راس النهج وولدو متعدي يقلو بابا اعطيني 500 شنية تعمل، شنية تحس. بابا اشريلي كورة بش نكور وبابا اعطيني مع صحابي. يحس روحو ناقص برشا حاجات مش قد المسؤولية

أحمد: اغزلي فما فترة معينة ديما في مخ الراجل: انت لازمك تصرف وانت لازمك تصرف. ديما راو العقلية هذي موجودة و انت راو كي توصل لعمر معين انت لازمك تولي تكون روحو وتعمل دار وتعمل مورد رزق وكل شي . باش تقلم هي مثال أكثر حاجة باش تجيب زهاز .. باش تجيب القاز والتلفزة أما انت لازمك تتحمل مسؤوليتك الكاملة

لكن إجابات المستجوبات تبين نسبية هذا التمثل «الذكوري» وتظهر أيضا حجم الضغط والضرر الذين يتعرضن له، فأغلبهن يرى ان المجتمع شهد تغيرات كبيرة وانه يجب على المرأة أن تحقق استقلاليتها المادية، وهي مطالبة أيضا بالمشاركة في الانفاق على أسرتها. بعض المستجوبات أكدن ان عمل المرأة أصبح معيارا هاما جدا -يكاد يكون شرطا أساسيا- عند بحث الرجل عن زوجة، مما يعني ان وضعية البطالة قد تؤثر كثيرا على إمكانية زواج الشابة وتعدق وضعيتها في مجتمع مازالت المبادرة إلى الخطوبة والزواج فيه بيد الرجال.

غادة: نحنا في مجتمع المرأ لازم تكون عندها سلطة، تخدم، باش تقعد تمد في ايديها يعني

رجاء: وصلنا لمستوى لازم المرأ عندها شهرية والراجل شهرية باش ينجمو يقومو بدار وصغار، خاطر الراجل وحدو ما ينجمش، مش كيما أمك وبوك تنجمو تعاونوا بعضكم، اما هو يقد يقلك طلباتك ياسر اخرج اخدم..

سارة: يختارها الا ما نبدي تخدم خاصة كي يبدي في عمر انو لازم يعرس

رانية: بالطبيعة تأثر، هو ملول يسمع بطالة، يولي يجبد في روحو، يقلك فك عليا مسؤولية اتو نولي اعمل واصرف وهات

سنا: مثال ما تتجمش تزهن وتعرس خاطر ما عندكش فلوس

2. كيف يتدبر العاطلون أمورهم؟

لا يمكننا القول بأن كل العاطلين يتدبرون أمورهم بنفس الشكل. تختلف الاستراتيجيات من شخص إلى آخر حسب ظروف عائلته ومستواه التعليمي ومهاراته ونشاطه وقدرته على التأقلم. لكن هذا لا يمنع وجود مشتركات بين المستجوبين حسب مستواهم التعليمي و/أو جنسهم. مثلا تبقى العائلة هي السند الأول في اغلب الحالات وتوفر حد أدنى من مصروف الجيب للشباب العاطل. وفي أغلب الأحيان لا يكون المبلغ الذي توفره العائلة كافيا فضلا عن الإحراج الذي يحس به معظم المستجوبين. ولا يعني عدم وجود شغل قار ان المستجوبين ليست لديهم أي تجارب مهنية أو خبرات أو مهارات، كل واحد منهم يحاول بطريقته ووفق ظروفه أن يقطع حبل البطالة ولو لمدة قصيرة وبمردود ضعيف.

استراتيجيات البحث عن عمل

قبل الحديث عن مختلف الاستراتيجيات تتوجب الإشارة إلى نقطة مهمة: جزء كبير المستجوبين والمستجوبات يعتبر ان العلاقات العائلية والمحسوبة والرشوة هي أسهل الطرق لفرص العمل الجيدة وأكثرها رواجاً.

لا يعول أغلب المستجوبين على دعم مكاتب الشغل والعمل المستقل نظرا لقلّة فرص الشغل التي توفرها وضعف إحاطتها بطالبي الشغل. مكاتب التشغيل الخاصة لا تحظى هي أيضا برضا المستجوبين وأكثرهم اعتبرها بمثابة عمليات تحيل تستنزف مواردهم الضئيلة دون مقابل حقيقي.

تبدو وضعية الذكور العاطلين بدون شهادات أصعب مقارنة بالذكور المتخرجين والإناث عموماً، فهم مجبرون أكثر على القبول بفرص الشغل الهشة والخطيرة والمؤقتة المرهقة جسدياً مع مردود مالي ضعيف ودون أدوات وتجهيزات السلامة المهنية أو تأمين من المخاطر (أشغال البناء والطلاء والبستنة، تعبئة وتفريغ حمولات، حراسة مؤسسات، الخ)، أو وظائف هامشية في القطاع الخدماتي كالمطاعم والمقاهي. كما ان المستجوبين في هذه المجموعة هم الأكثر «عشوائية» في البحث عن فرص عمل جديدة، اذ يعول أكثرهم على الصدفة وعلى الجيران والعائلة لضمان بضعة ايام عمل من حين لآخر.

ولئن كان المستجوبون والمستجوبات الجامعيين يلاقون صعوبات جمة في العثور على وظائف قريبة من اختصاصاتهم العلمية فإن فرص العمل التي يجدونها بشكل مؤقت ومتقطع تبدو أقل ارهاقاً وخطراً وهشاشة: دروس خاصة، عقود مع جمعيات، تصوير فوتوغرافي، وظائف تقنية في مخابر ومصانع، الخ. كما انهم يمتلكون اطلاقاً أكبر على فرص الشغل والدورات التكوينية وآليات التشغيل المتاحة بفضل تطور مهاراتهم في استعمال الانترنت وامتداد شبكات علاقاتهم مقارنة بالعاطلين الذين لا يحملون شهادات جامعية.

أما وضعية المستجوبات اللواتي لا يحملن شهادات جامعية فهي معقدة بعض الشيء، فمن جهة لا يمكنهن ممارسة الأعمال الجسدية الشاقة والهشة التي يمارسها الذكور اضطراراً وحتى

ان أردن ذلك فمن الصعب جدا أن يتدبهن صاحب العمل كما ان فرص الشغل هذه تكون في الكثير من الأحيان بعيدة جدا عن الحي وفي أماكن معزولة مما يطرح مسألتى التنقل والأمن- ومن جهة أخرى ليست لديهن الشهادات التي يمكن أن توفر لهن فرص شغل مريحة نسبيا. لكن هذا لا يعني انعدام الحلول تماما فبعض المستجوبات تحاولن كسب قوتهن عبر العمل في المنزل في مجال صناعة الحلويات مثلا.

معوقات البحث عن عمل

بالإضافة إلى الصعوبات «التقليدية» التي تعترض أغلب الشباب التونسي الباحث عن عمل فإن المستجوبين في حي التضامن -وفي المناطق المشابهة له - يعانون من معوقات أخرى تعقد أوضاعهم أكثر فأكثر. أولى المعوقات هي الوصم الاجتماعي والجغرافي. اغلب المستجوبين والمستجوبات يعتبرون ان وجود حي التضامن في خانة العنوان في بطاقة الهوية الوطنية يقلل حظوظهم في الظفر بفرص العمل التي يتقدمون لها ان لم يدمها أصلا. تقاطع الشهادات ضمن المجموعة البورية الواحدة وتكررها في المجموعات الثلاثة يجعلنا نستبعد ان يكون الأمر مجرد احساس أو ثقافة «مظلومية». ويكفي التثبت من التناول الإعلامي للاحتجاجات والحوادث التي تحصل في حي التضامن بين الحين والآخر لتأكد من مدى حدة وترسخ الوصم الذي يعاني منه متساكنو المنطقة التي يتملها الكثير من التونسيين كمعقل للعنف والإجرام والمخدرات. ويعتبر الذكور من غير حاملي الشهادات الجامعية الأكثر تضررا من هذا الوصم فهم لا يتمتعون بمستوى تعليمي عال «يشفع» لهم ولبسوا اناثا مما قد «يخفف» التوجس منهم. حتى فرص العمل الأكثر ارقا والأقل أجرا تصبح أحيانا غير ممكنة بسبب هذا الوصم. العقبة الثانية تتعلق بغياب سياسات التنمية في المنطقة وهشاشة نسيجها الاقتصادي مما يعمق فقرها ويجبر متساكنيها من العاطلين على البحث عن فرص شغل في أماكن بعيدة عن سكاهاهم، وهذا ما يقودنا إلى العقبة الثالثة. التنقل إلى أماكن بعيدة في ظل تردي منظومات النقل العمومي أو غيابها تماما يجبر المتساكنين على دفع مبالغ كبيرة من أجل التنقل إلى المؤسسات التي يعملون بها وهذا يتلغ جزء كبير من أجورهم مما يجعل الكثير من العاطلين يفضل البقاء في المنزل على العمل بأجر بالكاد يغطي نفقات النقل والأكل.

كريم: مثال تمشي تخدم في حي النصر يعرفك من حي التضامن يتقلق منك ما يخدمكش. يوقفك (بتحدث عن الأميين) ويشوف بطاقة تعريفك من حي التضامن تقعد تستنى 3 سوايح وبعد كان نضيف تروح. كتمشي وسط البلاد يشوف وراقك يلقاك من حي التضامن يقلك اشتمل هنا كأنك مشيت لسويسرا..

وائل: والله خدمت في دار طبيب صارت إشكالية قالو اهو ك خاطر من حي التضامن، أقسم بالله. شنوة معناها؟

خليل: الواحد يحكمو عليه حتى من لبستو من وجهو يحكمو عليه البشر.

الهجرة

لا يخفى على أحد ان الرغبة في الهجرة أصبحت حاضرة بقوة لدى الشباب التونسي -وحتى الكهول- على اختلاف مستوياتهم التعليمية ووضعيتهم المهنية، وهذه ليست مجرد تخمينات أو إحساس عام بل واقع تؤكد عدة بحوث من بينها الدراسة الميدانية التي أشرفت عليها إنترناشونال ألرت تونس تحت عنوان «شباب في الهوامش: تمثلات المخاطر والسياسة والدين في تطاوين الشمالية والقصرين الشمالية ودوار هيشر» حيث «تبلغ نسب من يفكرون باستمرار في الهجرة قرابة الـ40% من أفراد العينة في جميع المناطق في حين يفكر فيها أحيانا 28% من المستجوبين في القصرين الشمالية، تليها تطاوين الشمالية بنسبة 23،2% فدوار هيشر 21،4%» أي ان قرابة ثلثي الشباب المستجوب يفكر جديا في الهجرة بشكل دائم أو من حين إلى آخر. وطبعا مع حالة البطالة ومحدودية الإمكانيات المادية التي نجدها عند أغلب المشاركين في المجموعات البؤرية الثلاث فإن الهجرة تحضر كواحدة من بين أهم الحلول التي يفكرون بها للخروج من حالة العطوبة وانسداد الأفق. وهذا ينطبق على الذكور كما الإناث، ممن يحملون شهادات جامعية أو لم يستكملوا تعليمهم. لكن هناك فوارق ذات دلالة فيما يتعلق بشكل الهجرة وتمثل مخاطرها. جزء كبير من المستجوبات لا يستبعد الهجرة كحل لتحسين الأوضاع لكن أغلبهن غير مستعدات للمخاطرة بحياتهن في رحلات «الحرق» البحرية (الهجرة غير النظامية) بل يفضلن مغادرة البلد عبر الطرق القانونية بعقود عمل أو غيرها، الرغبة في الهجرة لدى العاطلين الذكور من حاملي الشهادات أقوى من الإناث في نفس المجموعة، وهناك استعداد أكبر للمخاطرة مع معرفة واسعة ومختلف الطرق والمسالك -القانونية وغير القانونية- التي قد تمكنهم من تجاوز أسوار الاتحاد الأوروبي. المستجوبون في مجموعة العاطلين غير الحاملين لشهادات جامعية هم الأكثر تفكيراً في الهجرة واستعداداً للمخاطرة، وهم كذلك أكثر مجموعة تحمل صورا «وردية» عن الهجرة وظروف العيش في بلدان الوصول.

سناء: كي تجي تشوف الظروف المادية. هي تترك عالخر أما من جهة العاطفية. كيفاش ياش يمشي للهلاك . الله أعلم يرجع ما يرجعش

أحمد: انا واحد بالناس نحب نعيش في عايلتي أما كان يجي واحد يقلي راو كي تحرق تولي تخدم وعندك فلوس وتنجم تعيش وتعمل الي تحب عليه الكل. بالطبيعة باش نمشي. نموت ولا نحيا المهم نعيش العيشة الي نحب عليها أنا.

محمد علي: أنا انجم نهرك لحوم في حي التضامن. طفل يبدأ عمرو 14 سنة ويتكيف في الزطلة وتقلوا شنية تحب تعمل في المستقبل. يقلك راني باش نحرق. هاني قاعد نلم باش نحرق، رانا بالحق توا نشوفوا في بلاد ترونسبارون ما عندهاش مستقبل جملة مهما باش تعمل راك ماكش باش تقوملك قائمة

أحمد: أبسط حاجة تمشي بـ15 مليون تعمل مشروع باش يطلب عليك باتيندا وچانوت وباش تخدم حتى باش تخدم كريدي حتى تقول باش نربح تقوم نخسر . يولي يحرق خير

- في تمثل الشباب العاطل لقانونية وأخلاقية العمل

أردنا أيضا ان نستكشف من خلال مواقف العينة المستجوبة مدى قبول الشباب العاطلين عن العمل بفرص الشغل التي قد تصنف دينيا كحرام أو قانونيا كاقصاد موازي (غير مهيكّل) . لاحظنا انه لا توجد عموما تحفظات عند المستجوبين فيما يتعلق بفرص العمل في قطاعات اقتصادية غير مهيكّلة وبشكل لا يحترم القوانين والتراتب الجاري العمل بها. نتحدث هنا على ما يسمى في قاموس الإدارة التونسية ب«الانتصاب الفوضوي» (تجار متجولون، وبسطات غير مرخصة) والعمل غير المصرح به سواء لدى الغير (بدون عقد عمل أو ضمان اجتماعي) أو في المنزل (صنع مواد غذائية، تجارة الملابس ومواد التجميل، الخ) أو عبر الانترنت (التسويق الهرمي، خدمات عن بعد، الخ). هذا التطبيع مع أشكال العمل غير المهيكّل وغير القانوني يعود بالأساس إلى هشاشة وضع المستجوبين الذين ليس لديهم حلول كثيرة لكسب عيشهم وتوفير الحد الأدنى من مصاريفهم ، وكذلك لتغول الاقصاد الموازي في العشريتين الأخيرتين بشكل جعله امرا شبه عادي. في دراسة بعنوان «مؤشرات حول العمل غير المنظم لسنة 2019»¹⁶ أصدرها المعهد الوطني للإحصاء نجد ان « عدد المشتغلين 3566.4 ألف مشتغل خلال الثلاثي الرابع لسنة 2019، يتوزعون الى 1967.7 ألف مشتغل في عمل منظم و1598.7 ألف مشتغل في عمل غير منظم. وبالتالي تكون نسبة الذين يشتغلون في عمل غير منظم 44.8% من بين مجموع المشتغلين». يتوزع المشتغلون في عمل غير منظم حسب الجنس بما نسبته 81.2% ذكور (1297.6 ألف) و18.8% اناث (301.1 ألف). وحسب دراسة أخرى أصدرها «المكتب الدولي للعمل»¹⁷ فإن نسبة الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين 15 و29 سنة (أي الشريحة التي ينتمي لها أغلب المستجوبين) العاملين في قطاعات الاقصاد غير المهيكّل تبلغ 77% (أجراء بدون عقود، مشغلين بدون تراخيص، عاملين في مشاريع عائلية دون أجور، عمال مستقلين). كل هذه المعطيات تجعل اغلب المستجوبين لا يمانعون في الانخراط في مسالك الاقصاد غير المهيكّل وربما لا يتبادر إلى أذهان بعضهم حتى انه غير قانوني.

حسني : ما عندكش شكون يدز معاك. ما نتصورش كان واحد فينا بش يلقي خدمة بالشهرية حتى مش مترسم وتقول لاء حتى موش يصبو عليك.

محمد: انا عملت نصبة قلت خلي ندبر راسي نبيع شوية غلة. جاو طردوني من الكياس، ما تبقاش غادي، برى روح. برى امشي اخدم بعيد برى للمرشي.

عند مقارنة فرص الشغل ومصادر الدخل من باب «الحرام والحلال» تتنوع المواقف أكثر وتبرز فروقات واضحة بين المجموعات حسب المستوى التعليمي والوضعية الاقتصادية والجنس. مثلا لاحظنا في مجموعة العاطلين عن العمل من غير حاملي الشهادات الجامعية تقبل أكثر -مقارنة بالمجموعتين الأخرين- للأعمال وطرق الحصول على المال التي قد تصنف دينيا ك«مال حرام». نتحدث هنا أساسا عن السرقة والسطو. ويبرر المستجوبون في هذه المجموعة اللجوء للسلوكات التي تجمع بين الجانب «الإجرامي» و«الحرام» بطروفهم الاقتصادية المتردية وبطالتهم

16 <https://bit.ly/3uP5T8U>

17 La jeunesse Tunisienne et l'économie informelle. Organisation internationale du Travail 2015. <https://bit.ly/3M8Bt7p>

التي تدفعهم لتوفير احتياجاتهم الأساسية بأي طريقة ممكنة، كما ان فرص العمل القليلة التي يتحصلون عليها أحيانا لا توفر أجرا لائقا ولا استمرارية ولا أمنا اجتماعيا ولا ظروف عمل تحفظ كرامتهم. هناك شبه قناعة لدى اغلب المستجوبين في هذه المجموعة ان العمل «الحلال» صعب المنال وان توفر فهو لا يسد الاحتياجات:

محمد: ما عندك مينين بش تصرف إنت تولى تعمل أيّ طريقة، تولى تعمل أي حاجة باش تدبر عشرة لاف وتعرف الي هي باش تعدي خمس سنين وتعملها عادي..

أحمد: أنا نحب نسعى نجيب فرنك بالحلال، تجي انت معناها، كيفاش بش نفسرهاالك، تهز في خشمك عليها، اعمل هديكة، هز هديكة، يكبرن عليك.

لسعد: ريت *à la fin* متاع الكلام هذاي الكل، البشر بش يتلنز يا بش يعمل حاجات ما تساعدوش، مش راضي عليهم بش يلقي ما يصرف، يا بش يتلنز بش يعمل مش حلال. في حي التضامن ما عندك حتى حل بش تجيب حتى دورو تولى تمشي تسرق، تهز متاع الناس.. وائل: أسمعني كل واحد وظروفو كل واحد أش عندو من خو أش عندو من أخت، الي اخته مريضة والي خوه مريض والي بوه ربي يعلم بيه والي امه..فما الي يلقاها بالحلال وفما الي يلقاها بالحرام وربى يسترو خاطر أمه وبوه راضين عليه.

لسعد: بالله سامحني انت تعيش في تونس والا لاء اعطيني واحد ريتو عمل حاجة وطلع بالحلال.. هذه راهي مستحيل.. حسني: كي تلوم كي تنجم ما تلومش.. كي مش تشوف ظروفو على عينيك... انت من بعيد مش تقول شبيه اذايا ناقص حاجة وشو كيفاه يعمل ويحب يمشي للحبس وكي تشوف انت ظروفو كيفاش تولى تعاونو باش ينجم يدخل مصروفو.. وتولي حلال وحرام معاش تعنيك...

لا يعني ذلك ان المستجوبين تصالحو تماما مع الكسب «الحرام» أو لا يكتثرون ل«عواقبه»، فلقد لاحظنا ان الكثيرين منهم يشعرون بتأنيب الضمير ويتمنون لو كانت ظروفهم أحسن حتى لا يضطروا لذلك، هناك حتى إحساس بالعار.

منذر: من بعد كنخط راسي على المخدة نقول علاش عملت هكاكة....نقول مسكين ومن باعد يعيطني أما الله غالب وقتها مش بش تخمم فيه يلزمك تجيب الفلوس.

لسعد: أمي باش ناخذها جبّة ب15 الف مانجمش ناخذها بفلوس حرام، نضحك على أمي ولا على ربّي. تقلي هاو عندك فلوس وما جبتليش نقلها فلوس حرام ما نجيبلكش منهم.

حتى في مجموعة العاطلين عن العمل من حاملي الشهادات الجامعية لاحظنا ان الذكور عموما أكثر تقبلا لمصادر الدخل التي قد تعتبر حراما لكن مع رفض قطعي للأفعال الحرام ذات الطابع الإجرامي التي تلحق بالأخرين (السرقه والسطو). مثلا هناك من لا يرى مشكلة في القمار (الرهانات الرياضية) ويعتبره مصدر دخل. كما لا يمانع بعضهم الاشتغال في وظائف قانونية لكن تحيط بها شبهة الحرام مثل العمل في الحانات أو في المقاهي التي تفتح أبوابها

نهارا خلال شهر رمضان. هذا القبول نسبي ويبرر بالضرورة الملحة، كما نلاحظ نوعا من الصراع الداخلي والشعور بالذنب في كلام بعض المستجوبين.

محمد علي: أنا تحطيت مرة في محط خايب عاللخر في رمضان. نخدم في قهوة في الالك بالنهار والدار قالولي لا وما لا. مشيت للإمام قتلوا راني أنا صايم أما ما عندي حتى حل كان باش نخدم قتلوا نخدم ولا؟ قالي اخدم. واضح قتلوا. بقيت نخدم. الي يجيو يكونسوميو في النهار أكثر ملي في الليل فهمتني؟ أما ما عندك حتى حل كان أنك نخدم و أكهو ومرة أخرى نخدم في أوتيل في قمرت نسربي في الشراب عالبحر وكذا. سألت عالها زادا قالي منجمش نقلك حلال والا حرام أما تو نسأل ونقلك.

أما بالنسبة للمستجوبات العاطلات، بشهادات جامعية أو بدونها، فنلاحظ بشكل جلي ان هناك رفض أكبر وأكثر صرامة لمصادر الدخل الحرام او التي يشتبه في كونها كذلك.

مروى: أنا الرأي هذيا نرفضوا . كان ينجم يخدم أي حاجة أخرى حتى أبسط حاجة يللم الدبابز ويدخل فلوس موش باللازم نسربي الشراب ولا نوكل ولادي فلوس الحرام. باش نجم نعيش أنا. كنت انجم نموت في اللحظة هذيكما . مبعد عند ربي شنية باش نقول..

سنا: أنا أي حاجة فيها شبهة راني ضد عاللخر

غادة: هه نعرف برشا اككا ، كيدخلو في الحرام ولت كراهب وشيخات، اللي تصوروا انت في شهر هو يصورو في نهار والا نهارين

طبعا هناك مستجوبات عبرن عن آراء أكثر «مرونة» وتفهما للأسباب التي قد تدفع العاطل عن العمل إلى القبول بالكسب الحرام، لكنها تبقى أقلية في المجموعتين:

فاتن: هو ما عمل هكاكا يعني ما ل قاش بيها وين، فما انسان كي تشوف كيفاش كان عايش و كيفاش وال ما تلقى ما تحكي

جيهان: أنا كي الظروف تلزوا يخدم. الظروف تلز راو. يجيك المالك عالكرء، ما عندكش باش تشري خبز. مازالت انت تخمم في الحلال و لا الحرام

هذه الفوارق بين الذكور والإناث في التعامل مع المعطى الديني التي تظهرها هذه الدراسة تتقاطع مع نتائج دراسة أخرى أشرفت عليها إنترناشونال ألرت تونس في 2020 تحت عنوان «شباب في الهوامش: تمثلات المخاطر والسياسة والدين في تطاوين الشمالية والقصرين الشمالية ودوار هيشر»¹⁸، فلقد أظهر ربط الاهتمام بالشأن الديني بمتغير الجنس «دلالة إحصائية حيث نجد ان الإناث أكثر اهتماما مقارنة بالذكور مثل ما هو ظاهر في دوار هيشر التي سجّلنا فيها 73,7% للإناث في خانة مهتم لحد ما مقابل 57,4% للذكور، وسجلنا نفس الأمر في القصرين الشمالية 70% للإناث في خانة مهتم لحد ما مقابل 58,1% للذكور وفي تطاوين نلاحظ الفرق في خانة مهتم جدا التي سجلنا فيها 34% للإناث مقابل 15,3% للذكور». تفاوت الاهتمام بالدين

18 شباب في الهوامش. تمثلات المخاطر والسياسة والدين في تطاوين الشمالية والقصرين الشمالية ودوار هيشر، تحت إشراف محمد علي بن زينة وألفة لموم ومريم عبد الباقي. إصدار إنترناشونال ألرت، تونس، نوفمبر 2020.

لا يقتصر طبعاً على العاطلات او التونسيات فهو منحى شبه عالمي¹⁹ وعابر للثقافات والأديان، ويرى البعض أن هشاشة وضع المرأة وعدم الإحساس بالأمان قد يكون أحد التفسيرات الأساسية لهذا التفاوت.

ليس من باب المصادفة ان الاقتصاد غير المهيكل بدأ يزدهر منذ تسعينات القرن الفائت وانتعش مع مطلع القرن الحالي وازدهر في العشرية الأخيرة، فهو ليس المرض بحد ذاته بل أحد أعراض أمراض الاقتصاد التونسي. تطور الاقتصاد غير المهيكل تزامن مع متغيرات سياسية واجتماعية-اقتصادية كبيرة: الانتقال من عهد الدولة «الرأعية» التي تلعب دوراً مركزياً في مختلف قطاعات الاقتصاد إلى عهد السياسات النيوليبرالية والدولة المنسحبة والمتقشفة، تراجع القطاع الفلاحي وعدد المشتغلين فيه، تنامي الهجرة الداخلية نحو أحزمة الفقر في المدن الكبرى، تصلب السياسات الهجرية الأوروبية، تفاقم أزمة البطالة، تراجع تشغيلية قطاعات كبرى مثل النسيج والجلود وغيرها، تدهور القدرة الشرائية للطبقات الوسطى، سيطرة عائلات وامبراطوريات على قطاعات اقتصادية بأكملها، تبني الدولة لأشكال العمل الهش وقوانين الشغل «المرنة» في اطار «التشجيع على الاستثمار» (أجور متدنية، سهولة «التخلص» من العمال، التساهل فيما يخص المساهمات الاجتماعية لأصحاب المؤسسات، مقاوله سائدة)، الخ...

في ظل أزمة البطالة وصعوبة الحصول على عمل «قانوني» في القطاعات «المهيكله»، مكافحة الاقتصاد «غير المهيكل» أو «الموازي» يعني بكل بساطة تجويع مئات آلاف التونسيين والدفع بهم نحو الجريمة و/أو الهجرة بأي ثمن. الدولة التونسية تعي هذا جيداً وحتى خطابها الرسمي حول ضرورة التصدي للاقتصاد الموازي وحماية «المهيكل» لا يقنع أحداً تقريباً بما في ذلك المسؤولين فهم يدركون انه احدى قنوات تصريف الغضب الشعبي ودعائم «السلم الأهلي» كما انه «يريحهم» قليلاً من ضرورة وضع سياسات فعالة لمكافحة البطالة والفقر. طبعاً تحرك أجهزة المراقبة الاقتصادية وقوات الأمن من وقت لآخر لتنظيم حملات تستهدف الحلقات الأضعف في سلاسل الاقتصاد الموازي لكنها تقوم بذلك لتخفيف ضغوط بعض رجال الأعمال والتجار «الشرعيين» وكذلك لاستعراض قوتها وقدرتها على التحكم، وأحياناً يتلخص الأمر في مجرد ابتزاز حتى يدفع العاملون في الاقتصاد الموازي «اتاوات» أكبر ليغض المراقبون الطرف.

كلمة «موازي» تفقد معناها في بعض المناطق التونسية، بل وتثير السخرية، فالاقتصاد المهيكل يصبح هو «الموازي» أحياناً. وهو ليس اختياراً بل ضرورة لعدد كبير ومتزايد من التونسيين (وكذلك المهاجرين غير النظاميين المقيمين في البلاد) يعتبرونه الحل الوحيد لضمان بقائهم وحفظ كرامتهم. مقارنة الاقتصاد الموازي -وكذلك الجريمة- في المناطق الفقيرة وعند الفئات الأكثر هشاشة من منظور القانوني/ غير القانوني أو الأخلاقي/ غير الأخلاقي أو الحلال/ الحرام هو أولاً «ترف» لا يتوفر للجميع خاصة عندما تجتمع البطالة بالفقر والتهميش وانسداد الأفق، وثانياً يتجاهل ان «المنظومات الأخلاقية» ليست ثابتة ولا منعزلة عن الوضع الاقتصادي-الاجتماعي. تجريم الاقتصاد غير المهيكل والتحليل «الأخلاقي» للانحراف والجريمة لا يمكن من فهم هذه الظواهر ولا تدبر الحلول الممكنة لها، كما انه يعفي الدولة والنخب الحاكمة والطبقات المهيمنة من مسؤوليتها عن الوضع.

19 <https://oxford.universitypressscholarship.com/view/10.1093/acprof:oso/9780199608102.001.0001/acprof-9780199608102> | www.cairn.info/revue-travail-genre-et-societes-20121--page-33.htm | www.pewresearch.org/religion/201622/03/the-gender-gap-in-religion-around-the-world/

3. السياسات العمومية للتشغيل وتقييم المستجوبين لها

«شغل، حرية، كرامة وطنية»، هذا واحد من أبرز شعارات الثورة التونسية التي ربما نسي البعض أو تناسوا ان جذورها كانت اجتماعية-اقتصادية بالأساس: بطالة، فقر، تفاوت جهوي، سياسات تمومية فاشلة، الخ. عدد كبير ممن قتلوا أو جرحوا خلال أحداث الثورة والأسابيع القليلة التي تلتها كانوا من الشباب الذين تتراوح أعمارهم ما بين 20 و30 سنة أي الفئة العمرية الأكثر تضررا من أزمة البطالة الهيكلية التي تعيشها تونس منذ عقود. في الأشهر والسنوات التي تلت 14 جانفي 2011 أعطت النخب التونسية الأولوية لما يسمى «مسار الانتقال الديمقراطي» والحقوق السياسية والمدنية على حساب تحقيق «أهداف الثورة» الاقتصادية-اجتماعية وأبرزها التشغيل.

12 وزيرا تداولوا على وزارة التشغيل والتكوين المهني منذ 18 جانفي 2011 إلى اليوم، ثلثهم من حركة النهضة (وربما أكثر اذا احتسبنا الوزراء «المستقلين» المقربين منها) وأغلبهم من أحزاب ومرجعيات اقتصادية ليبرالية. هذا العدد الكبير للوزراء الذين كلفوا بحقيبة التشغيل يدل من جهة على حالة التخبط السياسي (التي عرفتها كل الوزارات تقريبا) التي تعيشها البلاد منذ أكثر من عشرية، ومن جهة أخرى على ضعف أهمية هذه الوزارة في حسابات النخب الحاكمة التي عادة ما تختار المكلف بها على أساس المحاصصة والترقيات. وهو يثبت أيضا ان أزمة البطالة بنيوية لا يمكن معالجتها ببعض السياسات التشغيلية أو بتغيير المسؤولين بل ضمن سياسات واختيارات سياسية-اقتصادية شاملة.

وفي حين انتظر التونسيون ان تقطع النخب الجديدة مع سياسات ما قبل 14 جانفي وتعيد النظر في النموذج الاقتصادي والمناول التنموي اللذان أثبت فشلهما، فإن الحكام الجدد آثروا السير في نفس المسالك التي أوصلت البلاد إلى طريق مسدود. هذا على الأقل ما يظهر من خلال السياسات التشغيلية «الجديدة»، وهي في الحقيقة قديمة أريد تشيبيها وإعادة تسويقها من جديد. في السنوات الأولى بعد الثورة 2011-2014 تلخصت السياسة التشغيلية للدولة في «شراء السلم الاجتماعي» وتمظهر ذلك في انتداب الألاف من الموظفين والعمال في القطاع العمومي بشكل شبه عشوائي لا يراعي الاحتياجات الحقيقية والقطاعات ذات الأولوية، مما اعتبره البعض اغراقا للوظيفة العمومية واثقالا لكاهل الدولة وحتى اختراقا لدواليبها وأجهزتها من قبل الحكام الجدد. هذه المسألة وظفت سياسيا من قبل عدة أطراف اما عبر تضخيم الأرقام أو عدم الدقة في تحديد الفئات التي شملها الانتداب. وفي هذا الصدد قدم عبيد البريكي، وزير الوظيفة العمومية والحكومة في حكومة يوسف الشاهد بين 27 أوت 2016 و25 فيفري 2017، أرقاما مفصلة خلال مداخلة إعلامية²⁰: عدد منتسبي القطاع العام كان في حدود 510 ألف سنة 2011 ثم زاد قرابة 200 ألف ما بين 2012 و2016 شملت تسوية وضعيات 70 ألف من عمال المناولة و16 ألف شخص كانوا يعملون وفق «الأكبية» و10 آلاف من عمال «الحظائر» و9 آلاف شخص من بين المتتفعين بالعفو العام وجرحى الثورة وعائلات الشهداء.

20 خلال برنامج عرض على قناة «التاسعة» بتاريخ 14 أكتوبر 2016. <https://bit.ly/3xuBEpz>

وبخصوص العفو العام ومراسيم الانتدابات الاستثنائية في الوظيفة العمومية، يخلص تقرير دائرة المحاسبات حول مهمّة رقابية خصّت الانتدابات الاستثنائية بوزارتي التربية والشباب والرياضة بين 2011 و2015²¹ إلى انه «قد نتج عن مختلف الامتيازات الاستثنائية التي تمّ إسنادها تطبيقاً للأمر المذكور وضعيات إدارية لا تكرس مبدأي الإنصاف والمساواة بالوظيفة العمومية. كما ان تواصل الانتدابات المنجزة في هذا الإطار دون ضبط قيد زمني لها من شأنه إثقال كاهل الوظيفة العمومية وميزانية الدولة وذلك بغض النظر عن تحميل المساهمات الاجتماعية المستوجبة بعنوان فترات انقطاع المعزولين سابقا عن العمل على ميزانية الدولة».

على مستوى الهياكل والبرامج والتوجهات، حافظت جلّ حكومات ما بعد الثورة على إرث وزارة التشغيل.

أغلب برامج التشغيل المعمول بها سابق للثورة بسنوات. مثلاً آلية «العمل في الحظائر» انطلقت في السنوات التي تلت استقلال البلاد، وهي آلية هشة تهم أساساً المناطق الأكثر فقراً والفئات الاجتماعية ذات المستوى التعليمي المتدني، ومازالت قائمة إلى حدود اليوم. «شركات البيئة والغراسية والبستنة» التي أنشئت سنة 2008 في إطار تخفيف الإحتقان الاجتماعي عقب انتفاضة الحوض المنجمي، مازالت إلى اليوم قائمة وتشغل الآلاف في عدة ولايات دون قانون أساسي، وهي موجهة أساساً للفئات الأكثر هشاشة. حتى البرامج الموجهة أساساً للعاطلين من حاملي الشهادات الجامعية أغلبها قديم، بعضه يعود إلى أواخر الثمانينات وأخرى أقرت في سنوات 2000 أهمها التي وردت في الأمر عدد 349 لسنة 2009 مؤرخ في 9 فيفري 2009:

- تريض الإعداد للحياة المهنية،
- عقد إدماج حاملي شهادات التعليم العالي،
- عقد التأهيل والإدماج المهني،
- عقد إعادة الإدماج في الحياة النشيطة،
- برنامج مرافقة باعثي المؤسسات الصغرى،
- عقد التشغيل والتضامن.

أغلب هذه الآليات تصب في مصلحة أرباب العمل لأنها تمكنهم من تشغيل موظفين متخصصين مع تكفل الدولة بجزء من الأجر الشهري -أو كله - إضافة الى اعفاء مؤسساتهم من المساهمة الاجتماعية لفترة معينة، وكل هذا دون اجبارهم على انتداب الشاب العاطل عن العمل بصفة دائمة بعد فترة التريض. أي ان الدولة تتجاهل واقع دينامية العرض والطلب في سوق الشغل -عدد العاطلين عن العمل مقابل فرص الشغل المتاحة- التي تصب منذ سنوات طويلة في صالح أرباب العمل (وفرة طالبي الشغل واضطرارهم لقبول عقود هشة وأجور متدنية)، فتدعم الطرف الأقوى وترسخ هذا الوضع عبر خلق مواطن شغل هشة ومؤقتة بأموال دافعي الضرائب.. تم تعديل بعض هذه الآليات بعد الثورة اما بتغيير اسمها، أو مضمونها أو شروطها، مثلاً «تريض الإعداد للحياة المهنية» أصبح اسمه «عقد الإعداد للحياة المهنية» بغاية -نظرياً- ضمان حقوق أكثر لطالب الشغل وتحميل أصحاب المؤسسات مسؤولية

21 رابط التقرير: <https://bit.ly/3EnRFyV>

اجتماعية أكبر، وتم أحداث آية خاصة بالعاملين صلب الجمعيات والمنظمات: «عقد الخدمة المدنية». في سنة 2011 تم إقرار منحة «أمل» للعاطلين من أصحاب الشهادات الجامعية (200 دينار) لكنها لم تصمد إلا بضعة أشهر قبل الغائها تماما. وفي 2016 أعلنت حكومة يوسف الشاهد عن «برنامج فرصتي»²² والهدف منه تمثييع طالب الشغل ب«مرافقة مشخّصة في تحديد المشروع المهني المستقبلي ومساعدته على تحقيقه و توفير تكوين تكميلي في اللغات، تكنولوجيا المعلومات، الاتصال، المهارات الحياتية أو في اختصاصات تقنية أخرى وذلك حسب المشروع المهني والحاجيات المشخّصة بغاية «التأقلم مع حاجيات سوق الشغل والمؤسسات لتيسير التّفاذ الى عمل مؤجّر أو عمل مستقل»، ثم أطلقت في 2017 برنامج «عقد الكرامة» الذي يوفر لطالب الشغل منحة شهرية قدرها 600 دينار تدفع منها الدولة 400 دينار فيما تدفع المؤسسة الخاصة 200 دينار وذلك لمدة سنتين. في بداية سنة 2018 أعلنت نفس الحكومة عن نيتها تجميد الانتدابات العمومية باستثناء خريجي مدارس التكوين العليا وبعض القطاعات (وزارتي الدفاع والداخلية أساسا)، وذلك في إطار تقليص كتلة الأجور وتخفيض عجز المالية العمومية تماهيا مع «نصائح» صندوق النقد الدولي وشروطه لمنح الدولة قرضا جديدا. وعلى الرغم من احتجاج العاطلين عن العمل من حاملي الشهادات الجامعية ورفض الاتحاد العام التونسي للشغل ومنظمات أخرى للقرار فهو عمليا شبه قائم ونافذ إلى حد اليوم، فأغلب الانتدابات التي حصلت في السنوات الأخيرة هي أساسا في القطاعات الأمنية أو تسوية وضعية لموظفين وعمال في القطاع العام كانوا يعملون بعقود وقتية وصيغ هشّة أخرى. حتى القانون عدد 38 المؤرخ في 13 أوت 2020، والمتعلق بالأحكام الاستثنائية للانتداب في القطاع العمومي الذي أصدره البرلمان بهدف تشغيل حاملي الشهادات الجامعية ممن تجاوزت بطالتهم 10 سنوات لم يرى النور فعليا، فبعد أن صادق عليه في 16 أوت 2020 أعلن رئيس الجمهورية في نوفمبر 2021 -أي بعد جمعه السلطتين التشريعية والتنفيذية- انه لن يفعل هذا القانون لأنه «وُضع في تلك الفترة كأداة للحكم ولاحتواء الغضب وبيع الأحلام وليس للتنفيذ»!

وعلى الرغم من تعاقب أكثر من عشرة حكومات على السلطة باختلاف مكوناتها الحزبية وتوجهاتها السياسية-الايدولوجية فإن سياساتها التشغيلية كانت تعتمد بالأساس على الإعلان عن «تشجيع المبادرة الخاصة» لدى العاطلين عن العمل والتعويل على القطاع الخاص-المحلي والأجنبي- في امتصاص أزمة البطالة في تجاهل لمحدودية السوق التونسية وضعف تنافسية منتجاتها وقدرتها على التشغيل، ودون أن يترافق ذلك مع مشاريع عمومية تشغيلية أو استثمارات ضرورية في شبكات النقل والبنى التحتية، أو تغيير في السياسات التنموية يحسن أوضاع المناطق الأكثر تهميشا ويمنحها حدا أدنى من الجاذبية للاستثمار. حتى الهياكل العمومية المعنية بالتشغيل أصبحت وكأنها مجرد وسيط بين طالبي الشغل ومؤسسات القطاع الخاص، يتجلى ذلك في تعدد البرامج المخصصة للتشجيع على العمل المستقل وبعث المؤسسات وحتى في أسماء هذه الهياكل: الوكالة التونسية للتشغيل والعمل المستقل، فضاءات المبادرة والنهوض بالمؤسسات الصغرى. وتواصل الدولة المراهنة على تشجيع بعث مؤسسات صغرى عبر توفير آليات دعم وتمويل من عدة هياكل عمومية مثل: البنك التونسي للتضامن، الصندوق الوطني للنهوض بالصناعات التقليدية والمهن الصغرى، برنامج التنمية الحضريّة المندمجة، الجمعيات التّموّية

(في إطار القروض الصّغرى)، الصّندوق الوطني للتّشغيل، الخ. حتى على المستوى التشريعي هناك توجه قوي نحو التعويل على «العمل المستقل» و«المبادرة الفردية»، نلمسه مثلا في القانون عدد 20 لسنة 2018 المتعلق بالمؤسسات الناشئة (STARTUP ACT) وقانون «تحسين مناخ الاستثمار» (القانون عدد 47 لسنة 2019) ومشروع قانون عدد 81 / 2020 المتعلق بنظام المبادر الذاتي (auto-entrepreneur) الذي قدمته حكومة الياس الفخفاخ لكن لم تتم المصادقة عليه إلى حد اليوم.

كل هذه الهياكل والبرامج والتمويلات والقوانين لا يبدو انها أحدثت تغييرا فارقا في أرقام البطالة وخرارتها في تونس خاصة بالنسبة لحاملي الشهادات الجامعية. مثلا عدد العاطلين عن العمل في تونس كان أواخر سنة 2011 في حدود 738,4 ألف شخص (منهم 223,7 ألف من حاملي الشهادات) وفي 2019 انخفض هذا العدد إلى 623,9 ألف (منهم 255,5 ألف من حاملي الشهادات)²³. وهذا على الرغم من الزيادة الكبيرة في عدد المؤسسات الخاصة الذي ارتفع من 597597 مؤسسة أواخر سنة 2010 إلى 782115 مؤسسة أواخر سنة 2019،²⁴ ودون احتساب عدد التونسيين الذين هاجروا في السنوات العشر الأخيرة.

تقييم المستجوبين لسياسات التشغيل

الملاحظة الأولى التي نستنتجها من شهادات المستجوبين والمستجوبات ان هناك شح كبير في المعلومات حول سياسات التشغيل العمومية والمنح والمساعدات الاجتماعية لاحظناه خاصة عند المستجوبين والمستجوبات ذوي المستوى التعليمي المتوسط أو المتدني. بالإضافة إلى السبب الرئيسي وهو قلة فرص العمل المعروضة، فإن هذا الشح يمكن تفسيره من جهة بتقصير الدولة في الجانب التواصلي وعدم توحيدها للأطر والمنصات التي توفر المعلومة والإرشاد، ومن جهة أخرى بعدم قدرة الكثير من العاطلين عن البحث عن المعلومة والوصول إليها.

الملاحظة الثانية هي إحساس المستجوبين بأن الدولة ليس لها سياسات تشغيلية حقيقية وان اغلب الحلول المعتمدة اما فاشلة تماما أو محدودة الفعالية هدفها تسكين وجع البطالة لا معالجة الداء. وهذا التقييم السلبي يشمل البرامج والآليات المقترحة وكذلك أداء الهياكل العمومية المعنية بمرافقة العاطلين عن العمل وتشيغلهم.

لاحظنا في المجموعات الثلاثة عموما تدمرا كبيرا من مكاتب التشغيل والعمل المستقل التي يرى اغلب المستجوبين انها لا تقدم اضافة فضلا عن اتهام موظفيها بالمحسوبية والاستهانة بأسئلة العاطلين عن العمل والاستخفاف بمعاناتهم. كما تسائل الكثير منهم عن الجدوى من وجودها إذا كان عملها يقتصر على توفير نفس عروض الشغل التي قد يجدونها منشورة في مواقع الانترنت أو لدى مكاتب التشغيل الخاصة. هذا التقييم السلبي نجد أكثر حدة في المجموعة الأكثر تهميشا أي الذكور العاطلين الذين لا يحملون شهادات جامعية، وبشكل أقل عند المتخرجين من الجامعة، ذكورا واناثا.

23 أرقام المعهد الوطني للإحصاء

24 STATISTIQUES ISSUES DU RÉPERTOIRE NATIONAL DES ENTREPRISES. Edition 2020. Institut National de la Statistique (INS). <https://bit.ly/3xzioqM>

خليل: انا حاجة وحدة تتمناها يا ربي ان شاء هللا ناكل بعضها.. انا اول حاجة ال نمشي لباتكة ال «عزيزة» ال «مونوبري» نحب نمشي كان لبيرو الشغل.. راو غلب عليا... والله عندي مشكل معاه ديما مسكرها في وجهي..

منذر: ما يعاون في شئ .. كان ينحوه خير.. ما فماش حد مشى لبيرو الشغل وقضى قضيتو.. قاعدين ياخذو في شهرية.. وهلا صحة ليهم..

مروي: أنا ماللول كنت نمشي وكنت تتبع وكل يوم ندخل عالسيت ونشوف أما حكاية فارغة أيسنا. حتى بيرو الشغل فيه معارف زادة. تجيه خدمة باهية يطلبوا شكون من معارفهم باش يمشيها حتى حاجة بسيطة، جمعية والا حاجة.

محمد علي : كي تمشي لبيرو الشغل متاع الدولة تشوفو ما فاهم حتى شي هو، ثانيا باش نمشي نساو على حاجة تو ماهوش فاهمها، ما يعطيك حتى معلومة، و ما ينجم يعطيك حتى خدمة

أما في مجموعة العاطلات غير الجامعيات فنلاحظ ان التقييم أكثر إيجابية نسبيا خاصة فيما يتعلق بالدورات التكوينية ومرافقة الراغبات في بعث مشروع خاص.

غادة: خاصة بيرو الشغل تلقى، تفرا دراسة مشروع وكل شي وبعد يعطيوك كيفاش تعمل ال investissement و تخمم فيها

أميمة: نمشيو كان لبيرو الشغل اكهو..و بيرو الشغل خير اما كيف ما قلت لازم تحضر عاملين مشاريع و يجيولك بعد البانكا وتقدم البروجي، مش حاجة مضمونة يعني..

وفيما يتعلق ببرامج التشغيل فهناك قناعة لدى جُلّ المستجوبين بأنها غير فعالة وان معايير الانتفاع بها ليست موضوعية بل تقوم أساسا على العلاقات والزبائنية وحتى الرشوة. العاطلون عن العمل من غير حاملي الشهادات الجامعية، ذكورا وإناثا، هم الأقل حظا في هذه البرامج والأقل وصولا لها. لا توفر لهم الجماعات والسلط المحلية المعلومات الكافية حول هذه البرامج وحتى في صورة تقديم ملفات للحصول على موطن شغل فإنها تهمل لسنوات. وضعية العاطلين المتخرجين أفضل نسبيا فبعضهم انتفع بألية «تربص الإعداد للحياة المهنية» أو «عقد العمل المدني» بالإضافة إلى دورات تكوينية.

أما بخصوص تشجيع الدولة على بعث المشاريع الخاصة فالآراء متباينة. مجموعة الذكور المعطلين تبدو غير معنية بالمرة، لا الدولة تتوجه لها ولا هي تمتلك الحد الأدنى من التمويل والعلاقات والدعم والتكوين في بعث وإدارة مشاريع خاصة. في مجموعة حاملي الشهادات وكذلك مجموعة العاطلات غير المتخرجات هناك من جهة رغبة لدى عدة مستجوبين في بعث مشروع خاص، ومن جهة أخرى تردد وتخوف كبير من إمكانية الفشل. هذا الخوف له عدة مبررات موضوعية: ضعف الإمكانيات المادية، والخوف من المخاطرة باستثمار متأتي من القروض والعجز عن السداد في حالة الفشل، ومحدودية آليات المرافقة التي توفرها الدولة للباعثين الشبان، والبيروقراطية والتعطيلات، والوضع الاقتصادي المتأزم للبلاد، الخ.

فاتن: ما فماش خدم، اصل كي تمشي تلقى الجراءات ديما طويلة وبليدة، تترعب ، يعجزوك اصلا، وبعد شوف يعجبهم المشروع و شوف ال و شوف يعطوك و شوف ما يعطوكش..

حلمي: المشكلة تو في ظروف البلاد، ما عاdash تعرف شنوة المشروع اللي باش تعملو

احمد: إذا كان انا في المستقبل نحب نعمل مشروع نشالله، هل انا باش نلقى تكوين؟ انا مثال ما نجيش مجالي نحب نتعلم مجال مريح نمشي فيه، هل انا الدولة تعملي تكوين، هاذايا ما يتسماش تقصير انها تأطرنى وتخلينى ننجح! شنية الافكار متاع المشاريع، شنية المجالات الناجحة، شنية يلزمك تعمل شنية لازمك ما تعملشمش، اكاك برا راو شباب عملوا مشاريع خاصة، اي هاو انا ما عنديش المكانيات المادية، ما عنديش افكار، ما عندي حتى شي، كيفاش تطيشني في هاوية انت؟

مروى: كي تبدا مازالت في الليسي تجم تعمل مشروع ولا حاجة أما كي توصل للفاك تلقى روحك باش ترجع تخدم حجامة، تلقى روحك في ثنية لآك منجم توخر لا تقدم.

4. المقاومة والتنظم

يعاني الشباب في حي التضامن بشكل مضاعف من فشل السياسات الاقتصادية للدولة التونسية في محوري التنمية والتشغيل، على المستوى المحلي وكذلك على المستوى الوطني فهم يتمون إلى أجيال تعيش بطالة بنيوية ويقطنون منطقة مهمشة منذ عشرات السنين. لذا حاولنا استكشاف ردود فعل المستجوبين على هذا الوضع ومدى انخراطهم في الحراك الاجتماعي المناهض لهذه السياسات وأشكال تنظمهم في مواجهتها.

حي التضامن كان من بين المناطق التي انتفضت في جانفي 2011، وشهدت في السنوات الموالية عدة حركات احتجاجية لعل أكثرها حدة حراك جانفي 2021 الذي جوبه بعنف بوليسي شديد وعدة حملات تشويه في بعض وسائل الإعلام. العديد من المستجوبين خاصة في مجموعة العاطلين غير الحاملين لشهادات جامعية شاركوا في بعض هذه التحركات أملا في تغيير أوضاعهم لكن نستشف من خلال بعض الإجابات ان هناك نوعا من الإحساس بلا جدوى هذه النضالات التي تتكرر دون أي جديد. زد على ذلك، عبر بعض المستجوبين عن مخاوفهم من ان يجتمع عليهم الفقر والسجن والعنف البوليسي اذا ما اعتقلوا خلال الاحتجاجات. هذه المخاوف تؤكد مرة أخرى ان الحريات السياسية والحقوق والحرمة الجسدية مازالت غير مضمونة في تونس خاصة عندما يتعلق الأمر بالهوامش والفئات التي لا «ظهر» يسندها.

خليل: هوما يلزونا باش نضربو بالحجر.. انت هابط تحتج على روحك هوما يستفوك يلزوك باش تضرب بالحجر وبعد يضربوك بالغاز.. حسني: في الاحتجاجات اللي فاتت في شارع الحبيب بورقيبة يضربوا فيهم بالغاز والماء السخون توة عباد ولا حيوانات اذوكم..

-منذر: انت في «السيفيل» ميت بالشر فما بالك بالحبس.. ريت العيشة لهنأ يلزم عنك فلوس.. انت ما عندكش باش تقاومهم لا في البر ولا في البحر.. معناها حكاية زائدة

عموما هناك نفور لدى أغلب المستجوبين من العمل السياسي التقليدي والمؤسستي القائم على الانخراط في الأحزاب والمشاركة في الانتخابات، مع ميل أكثر إلى الحركات الاحتجاجية والنضالات الفئوية والمناطقية. لكن هذا لا يعني ان كل المستجوبين يعقدون امالا كبيرة على الاحتجاجات والتحركات الميدانية فبعضهم عبر عن عدم اعتقاده في جدوى التحركات الجماعية التي أصبحت متكررة في الشكل والمضامين. هذا الاعتقاد بأن النضالات الجماعية «حكاية فارغة» يجعل بعض المستجوبين يبحث عن الخلاص الفردي على الرغم من ان الأزمة وطنية وجماعية ومشتركة.

مروى: خرجنا في الثورة كهو ، انا تو حاليا وليت نحس فيها حكاية فارغة يخرجو يعيطوا يعيطوا و بعد يروحوا..

أميمة : توة حكاية فارغة هوكا اعتصموا على قرارات الرئيس متاع التندابات ، اعتصموا اعتصموا ،حكاية فارغة ، هو قيس صحيح قال مش موجود خدم ما تقلقوش رواحكم 5سنين القدام ، عبد يقلمهم راو مافماش فلوس و ما فماش خدم و هو ما خارجين نشوفها انا حكاية فارغة و ما فيها حتى حل

حلمي : السؤال هذا مربوط بلي قبلوا . أنا كي نعمل احتجاج و نبدا عارف إلي موش باش يتبدل شي . زايد يعني نشوف حل وحدي

الملفت للنظر في شهادات المستجوبين من حاملي الشهادات الجامعية ضعف انخراطهم في حركات الاحتجاج الجماعي والهيكل التي تدافع عن حقوقهم على الرغم من مستواهم التعليمي ووعيهم المفترض واحتكاكهم بهذه المنظمات خلال سنوات التعليم العالي. لم يخض أي مستجوب ضمن هذه المجموعة تجربة صلب النقابات الطلابية أو تسيقيات العاطلين عن العمل أو الأحزاب السياسية بالرغم من انهم درسوا في الجامعة وتخرجوا بعد ثورة 2011 أي بعد سقوط حاجز الخوف من التبعات الأمنية للعمل السياسي والنقابي، مما يدفعنا للتساؤل أولا عن دور ونجاعة المنظمات والنقابات الطلابية والتيارات السياسية في الجامعة، وثانيا عن أسباب نفور الشباب المتعلم من النشاط الاحتجاجي المنظم والعمل السياسي التقليدي (ضمن أحزاب وتنظيمات). هذه الفئة هي أيضا الأقل حماسا فيما يتحرك بالنضالات الميدانية والاشتباك في الشارع مع أجهزة السلطة، ولربما ينبع هذا الموقف من النجاح النسبي لسياسات الاحتواء الحكومية عبر وعود التشغيل وبرامج التكوين والمنح الزمنية وتسهيل استكمال الدراسة في مراحل ما بعد الإجازة والاستفادة من ديناميكية المجتمع المدني لتشغيل بعض العاطلين، الخ. هذه الفئة وعلى الرغم من بطالتها وتردي أوضاعها الاقتصادية تبقى -مقارنة بفئات العاطلين الأخرى- الأكثر قدرة على الحصول على منافع ضئيلة من النظام الاقتصادي القائم والأكثر أملا في تحسين أوضاعها لذا لا تميل كثيرا إلى تغيير الأوضاع بالقوة والنضالات الجماعية. في حين تبدو مجموعتي العاطلين غير الحاملين لشهادات جامعية أكثر استعدادا للنزول إلى الشارع والمشاركة في الاحتجاجات حتى التي توجهه بعنف بوليسي شديد، خاصة في مجموعة الذكور الذين توضح شهاداتهم انه ليس لديهم ما يخسرونه وانه لا ثقة لهم تماما في السلطة ولا أمل في تحسين أوضاعهم .

تبدو علاقة الشباب العاطل بالجمعيات أفضل، فهناك نوع ما اقتناع بدورها كهيكل وسيط بين المواطن والسلطة وكذلك كمدخل للاندماج في المجتمع، ربما لأن النشاط صلب المجتمع المدني أكثر مرونة وأفقية وأقل هرمية وجمود من الأحزاب، كما انها استفادت من الغياب شبه الكلي للأحزاب وتملص الدولة من واجباتها الاجتماعية وتقصيرها الكبير في توفير البنى التحتية وأسباب الحياة الكريمة والحد الأدنى من سبل الترفيه. أغلب الجمعيات التي ذكرها المستجوبون هي ذات طابع «خيري» توزع الإعانات بشكل دائم أو متقطع أو ظرفي، أو تموي و ترفيهي/رياضي. ولم يأتي المستجوبون على ذكر الجمعيات والمنظمات ذات الطابع الحقوقي و«السياسي». بعض المستجوبين يتعامل معها ببرامغامية أي الاستفادة من المنح المالية أو الدورات التكوينية التي يمكن أن توفرها بعض الجمعيات. لاحظنا هذا التقييم الإيجابي خاصة في مجموعة خريجي الجامعة ومجموعة النساء اللواتي لا يحملن شهادات جامعية. علاقة المستجوبين في مجموعة العاطلين بدون شهادات بالمجتمع المدني أضعف من البقية وتقتصر أساسا على الجمعيات «الخيرية» التي توفر معونات غذائية وأمور مماثلة.

أحمد : الجمعيات ساعات يعملولك فورماسيون ينفعوك. تماللك وقتك . تخليك تنجم تعمل حاجات و تندمج و تعرف العباد

محمد علي: الجمعيات عندهم موقع مهم ياسر. تحاول تقرب العالقات بين المواطن والسلطات المحلية. لازمك تتعلم تشط و هذا حسب قيمة الجمعية أحمد: تماللك وقتك. تخليك تنجم تعمل حاجات وتندمج وتعرف العباد

هناك اجماع في المجموعات الثلاثة على عدم الثقة في الأحزاب السياسية بمختلف توجهاتها، وأكد جلّ المشاركين انهم لم ينخرطوا سابقا في اي حزب. وحسب أجوبة بعض المستجوبين نجد ان هذه الأحزاب اما غائبة تماما عن محيطهم المباشر أو حاضرة لتستغل فقرهم في المواسم الانتخابية والأزمات وفق منطق «زبائني» لا يختلف كثيرا عن شراء الأصوات. ويرى جزء كبير من المستجوبين ان الأحزاب لا تكتري لأوضاعهم وليس لديها ما تقدمه لهم. وتقريبا كانت حركة النهضة الحزب الوحيد الذي أتى ذكره على ألسنة بعض المستجوبين مما يبعث على التساؤل حول غياب الأحزاب اليسارية والاجتماعية عن منطقة تفتقر أوضاعها الاجتماعية-الاقتصادية انها بيئة حاضنة لمثل هذه الأحزاب. هذا الموقف السلبي المعمم يبعث على القلق فيما يخص مستقبل الديمقراطية والعمل السياسي فالأحزاب السياسية هي هياكل وسيطة يفترض انها تلعب دورا هاما في النقاش العام وفي إدارة الشأن العام كسلطة أو سلطة مضادة. هذا «اليأس» من الأحزاب ينعكس أيضا على تمثل الشباب للعملية الانتخابية ومشاركته فيها.

كريم : خاطر الاحزاب يخدموا بينا.. سامحني الحزب بعد ما يطلعوه الناس ينساها العباد اذيكالكل .. اللي ضرب معاك.. معناها انت مش تخدم بيا عاد هاني قاعد...

فاتن : يجي باش يقضي بيك اموروا و اكهو في وقت الانتخابات ، يجي يمدلك ورقة فيها مشاريع ما فماش منها ، نعملولك و نعملولك ، بعد ما تعاودش تشوفوا ، اما نحنا ما نمشوش و هو ما عاودش رجعوا ، ما يخرجوش على عين المكان و يشوفوا شغما و شفافماش،

حسب رأيي انا في الانتخابات الرئاسية الجديدة ما ينتخب حد ، اللي ينتخب عامين نالثة
لتالي ما يميش
سنا : انا كرهتها اكا الانتخابات

لا يمكن تحليل علاقة الشباب في حي التضامن، خاصة العاطلين منهم، بالشأن السياسي والعمل المدني بمعزل عن انتمائهم الطبقي والمناطقي. تشرح الباحثة ألفة لملوم في دراستها المعنونة «السياسة على هامش الدولة والمؤسسات: حالة شباب دوار هيشر وحي التضامن»²⁵ هذا الترابط فتقول «يفترض ألا نحلل العلاقة بين شبان دوار هيشر وحي التضامن والسياسة دون الأخذ في الاعتبار موقعهم المخصوص «على هامش المدينة والدولة»، وتفسر كيف يعاني أبناء المنطقتين من ظلم مزدوج، أولا اللامساواة الاجتماعية بمعنى «الانتماء لطبقة فقيرة، وامتلاك رأس مال اجتماعي ضعيف، والتعرض المستمر للهشاشة والبطالة»، وثانيا اللامساواة الحضرية «التي تحيل إلى نفاذ غير متساو للموارد، وللخدمات التي يتيحها فضاء حضري مستبعد (فضاءات الترفيه والثقافة والاستهلاك والتمازج الاجتماعي والجندي) والتي تترابط زيادة على ذلك مع تأثيرات الوصم، والتمييز على أساس عنوان المسكن الذي يشكل الشبان ضحاياه».

هذا «الموقع المخصوص» يؤثر بشكل كبير في تقييم الشبان لثورة 2011 وما بعدها، ليس من منطلق الحريات والديمقراطية «المجردة» بل ما تحقق من تغيير في واقعهم المعيش:

«ولكن إذا كان البحث الكيفي قد يبين أن البعض من الشبان، خاصة من بين حاملي الشهادات، يثمنون حرية التعبير الجديدة المكتسبة مع الثورة مستخدمين لها للمطالبة بحقوقهم أمام السلطات فإن البحث الكمي قد كشف ان 44% من الشبان يعتقدون أن حياتهم اليومية لم تتغير منذ 14 جانفي 2011. بل حتى زادت سوء. حيث يدعم 46% من بينهم فكرة أن ظروفهم المعيشية قد تردت ويصل أكثرهم بؤسا إلى حد الندم على عهد بن علي.

ولا عجب أن يكون التفسير الأكثر تواترا لهذا التماثل ذا صبغة اقتصادية، وهو حيلة استمرار البطالة، والصعود السريع لأسعار المواد الأساسية. وأثناء المقابلات، ذكرت الكثير من الفتيات لتفسير هذا الشعور تراجع الإحساس بالأمان، الذي يعيق حريتهن في التنقل، دافعا البعض منهن إلى ترك عملهن نتيجة الغياب المؤكد لوسائل النقل عند المساء».

عدم ترافق حرية التعبير والتداول على السلطة بتحسين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، واستبعاد الشباب والهوامش من دائرة القرار كلها مؤشرات تقول بأن غالبية الشباب في حي التضامن والمناطق المشابهة له ظلت «مستبعدة من مقتضيات المواطنة الاجتماعية، (التأمين على المرض، الحماية الاجتماعية، والتجهيزات الجماعية) ومحرومة من النفاذ للبنية التحتية الثقافية والترفيهية».

25 نشر ضمن مؤلف جماعي بعنوان «في سوسيولوجيا الهوامش في تونس، دراسات في المناطق الحدودية والأحياء الشعبية»، اشراف محمد علي بن زينة- مريم عبد الباقي- ألفة لملوم. إنترناشيونال أرت تونس. الصفحات 153-181. الطبعة الأولى: مارس 2018، دار محمد علي الحامي للنشر.

هذا الاستبعاد لا يعني بالضرورة بأس الشباب من إمكانية التغيير وانعدام اهتمامهم بالشأن السياسي ومحاولة التأثير فيه، لكنه يؤدي إلى ضعف ثقتهم -أو انعدامها تماما- في المؤسسات السياسية الرسمية والحزبية وبشكل أقل في منظمات المجتمع المدني ذات الطابع الحقوقي. هذا النفور هو كما تشير ألفة لملوم «سمة من سمات الانفصال أو البعدية عن السياسة الممأسسة» التي «لا رقابة لهم عليها».

تجدر الإشارة إلى أن الدراسة المذكورة أنجزت سنة 2015، أي ان ما عبر عليه المستجوبون في هذا التقرير المنجز في 2022 من ضعف ثقتهم في الدولة ونفورهم من العمل السياسي المؤسسي لم يأتي من فراغ بل هو احتجاج «صامت» وتناج طبيعي لإخفاق الطبقة السياسية التي حكمت البلاد في العشرية الأخيرة في توفير أسباب الشعور بالمواطنة لسكان الهوامش والفئات الهشة عموما.

لا يمكن لأحد أن ينكر الدور الكبير الذي لعبه الشباب، خاصة من الفئة العمرية 18-25 سنة وبشكل أقل من فئة 26-35 سنة، في وصول الرئيس الحالي للجمهورية، قيس سعيد، إلى الدور الثاني من رئاسيات 2019 ثم إلى قصر قرطاج بعد انتصاره الكاسح أمام منافسه نبيل القروي. ومثل هذا الانتصار خاصة في الدور الأول- صدمة للعديد من القوى السياسية وحتى المثقفين والمختصين في العلوم السياسية، ربما بسبب ضعف صلتهم بالشباب وبالواقع الميداني خاصة في المناطق المهمشة. نتيجة رئاسيات 2019 لم تكن مفاجئة تماما، مثلا أظهرت الدراسة الميدانية «شباب في الهوامش» التي أشرنا لها سابقا (أجريت ما بين 15 أبريل و5 ماي 2019) ان قيس سعيد كان يحتل المرتبة الأولى في صفوف الشباب. في دوار هيشر والقصرين الشمالية بينما احتل المرتبة الثانية في تطاوين الشمالية. ولا تختلف هذه النتائج حسب المستوى التعليمي أو النشاط الاقتصادي». فسر عدة محللين انتصار قيس سعيد بعدم انتمائه إلى المنظومة الحزبية، التي لا يثق فيها الكثير من التونسيين، وإلى النخبة (الحاكمة والمعارضة) المتصدرة للمشهد السياسي بعد 14 جانفي 2011 والتي تراها عدة فئات من الشعب -على رأسها الشباب- كتلة واحدة منسجمة ومسؤولة عن أزمة البلاد الاقتصادية والسياسية، وربما أرادت معاقبتها. كما ان صورة المرشح «الفقير» و«نظيف اليد» الذي يجوب البلاد ويذهب إلى تخومها وهوامشها بلا صخب ولا بهرج في حملة انتخابية غير تقليدية لم تستعمل التمويل العمومي ولم تتكلف إلا «سيقارو واكسبراس» (سيجارة وقهوة) كما يقول مناصروه، خدمت كثيرا قيس سعيد وأعطت ترشحه مصداقية وبعدا «أخلاقيا» في فترة بلغ فيها الفساد (أو شبهاته) مستويات كبيرة وخطيرة. لهذا ربما علق الكثير من الشباب العاطل والمفقر آمالا كبيرة على فوز قيس سعيد «المختلف» عن الآخرين و«المتدين» بلا «أيديولوجيا» والعازم على «مكافحة الفساد» والراغب في «إعادة بناء النظام السياسي» حتى يغير الأوضاع الاجتماعية-الاقتصادية و«ينقذ البلاد». بالإضافة إلى هذه العوامل «الموضوعية» هناك عامل ذاتي يفسر المساندة التي حظي بها الرئيس في حي التضامن فهو يقطن في منطقة «المنبهلة» التي كانت تشكل في السابق دائرة بلدية واحدة مع حي التضامن، أي ان قيس سعيد «ولد حومة» كما يراه الكثير من المستجوبين.

لكن هذه العلاقة بالحي التي قد تكون خدمته في الانتخابات لم تشفع له كثيرا في تقييمات أغلب المستجوبين والمستجوبات لفترة حكمه. هناك عموما خيبة أمل كبيرة من أداء الرئيس على المستوى الاقتصادي الاجتماعي.

هذا التقييم السلبي أكثر حضورا لدى مجموعة العاطلين الحاملين لشهادات جامعية، الذين عبروا صراحة انهم فقدوا الأمل تماما وانه ليس للرئيس ما يقدمه خاصة بعد تعطيله القانون عدد 38 لسنة 2021 والقاضي بالانتداب الاستثنائي لحاملي الشهادات الجامعية ممن طالت بطالتهم وكذلك تصريحه أكثر من مرة ان الدولة ليس إمكانيات لانتداب أصحاب الشهادات العاطلين.

مروى: هو انتخبوا الشباب و فيبالنا هو الأمل باش باش نقدمو .

الباحث: هل تحسوا أو حسيتوا أنوا فما تغيير مع الرئيس قيس سعيد ؟

الكل قالوا «زدنا فقدنا الأمل»

أما في مجموعة العاطلين من غير حاملي الشهادات الجامعية فخيبة الأمل واضحة من «ولد الحومة» الذي انتظروا منه أن يغير واقع المنطقة التي يعرفها جيدا فلم يتغير شيء. لكن على الرغم من خيبة الأمل فهناك قناعة لدى الكثير من المستجوبين في هذه المجموعة بأن الرئيس مازال بإمكانه أن ينهض بالمنطقة لو أراد ذلك. وهنا نفهم أن صورة الرئيس في المخيال الجمعي لم تتأثر كثيرا بتغيرات النظام السياسي بعد الثورة الذي أعطى سلطة أكبر لمجلس نواب الشعب ورئاسة الحكومة على حساب سلطة رئاسة الجمهورية، وربما قد تنتعش الصورة القديمة بعد عودة «سطوة» رئاسة الجمهورية اثر «إجراءات 25 جويلية 2021 الاستثنائية» وانفراد قيس سعيد بالحكم.

منذر: نقلك حاجة صغيرة شكون توة اللي شاد البلاد.. ماو الرئيس والرئيس شكون اللي نخبلو ماو اوالد حي التضامن ياخي يتسمى ولد حومتنا .. هو جاء قال اريانة ومنوبة مش نقدملهم اشغال واندرنا شتوة.. فرحنا احنا قلنا هذا نعرفوه خير من اللي ما نعرفوشو..

حسني: قيس سعيد يعمل مشاريع..

لسعد: قيس سعيد كان يجب يعمل المشاريع يعمل المشاريع

في مجموعة العاطلات من غير خريجات الجامعة لاحتنا تنوعا أكبر في تقييم أداء رئيس الجمهورية، خيبة الأمل حاضرة بقوة لكن هناك في بعض الشهادات تفهم من المستجوبات للظروف التي قد تكون «منعت» الرئيس من القيام بمبادرات ومشاريع لامتناص البطالة:

امنة: هو ما ينجمش بيدل كل شي فيسع في ليلة ونهار، برشا خرم..

رجاء: الاقتصاد طايح، باش باش يوفرك، اك الوعود الزائفة مجرد حبر على ورق...

خلاصة

شهادات المستجوبين على اختلاف جنسهم ومستوياتهم التعليمية سمحت لنا بـ«تكبير الصورة» حتى نرى تفاصيل ما يعيشه العاطل عن العمل في مختلف مناحي حياته: حياته اليومية، تدبر نفقاته، تواصله مع محيطه وانعزاله عنه، بحثه عن عمل وتحايله على «الفراغ»، هواجسه وآماله، احباطه من سياسات الدولة ومقاومته لها، الخ.

البطالة ليست حالة اقتصادية فقط، فالعاطل عن العمل يعاني أيضا من «عطالة» اجتماعية تؤثر على موقعه في محيطه العلائقي وروابطه به، بعض هذه العلاقات يتوتر بتوالي سنوات البطالة وقد يأخذ منحى عنيفا (العائلة) وبعضها يتحلل بمرور الزمن واختلاف المسارات (الأصدقاء) أو يموت «في المهد» او يقطع بعد سنوات بسبب ضيق الحال (علاقات عاطفية).

البطالة ليست حالة مادية فقط، بل هي أيضا عناء نفسي شاق يرهق العاطل عن العمل ويتحول أحيانا إلى عناء جسدي. كلما طالت فترة البطالة زاد شعور المستجوبين، ذكورا وإناثا، بوطأة عطالتهم وتبعيتهم المالية و«ثقلهم» على محيطهم فيتولد لديهم إحساس بالخجل وحتى العار في بعض الحالات، نلاحظه أكثر عند الذكور الذين يعتبرون ان الضغط الواقع عليهم أكبر مقارنة بالإناث نظرا لتقبل المجتمع فكرة بقاء المرأة في البيت وتكفل ذكور عائلتها بمصاريفها. لكن شهادات العديد من المستجوبات تبين كيف تزيد البطالة هشاشة وضع المرأة ويتركها تحت «رحمة» الآخرين، فالتمكين الاقتصادي والاستقلالية المالية يضمنان للمرأة حد أدنى من الحماية ويمنحها نسبييا- حرية تنقل أكبر كما انه يوسع «هامش الاختيار» عندما يتعلق الأمر بالعلاقات العاطفية والارتباط.

عبر الكثير من المستجوبين عن سأمهم من حالة العطوبة التي تسبب في ركود حياتهم في حين يتحرك العالم من حولهم بسرعة. ولمقاومة هذه الحالة النفسية يلتجأ كل واحد منهم إلى طرق مختلفة لتجزية الوقت وتناسي وضعه الاقتصادي الاجتماعي. لكن قلة أماكن الترفيه وضعف الموارد المالية وعزلة الحي النسبية تقلل الاختيارات: منصات التواصل الاجتماعي، المسلسلات، المقهى، قاعات الرياضة الخاصة، الملاعب، والسلوكات المحفوفة بالمخاطر مثل استهلاك مهدئات بدون اذن طبي أو الإدمان على المخدرات (أساسا الزطلة وخاصة عند الذكور من غير حاملي الشهادات الجامعية).

يحاول كل عاطل تدبر أمره بشتى الوسائل لكن تبقى العائلة هي «المعيل» الأول والأعمال الهشة والمؤقتة هي «الحل» الرئيسي. وفي منطقة مثل حي التضامن تعاني فضلا عن ارتفاع نسب البطالة من الفقر والوصم الاجتماعي والأمني (الجريمة، الإرهاب، الإدمان) وتردي البنى التحتية وضعف الربط بشبكات النقل تتزايد عزلة العاطل عن العمل وتتناقص فرص حصوله على شغل لائق يوفر له الأمن الاقتصادي ويحفظ كرامته. المستجوبون الذكور الذين لم يستكملوا تعليمهم وليست لديهم شهادات تكوين مهني او مهارات حرفية هم الأكثر تضررا من حالة البطالة «المستدامة» ففي كثير من الأحيان تغلق أمامهم كل الأبواب حتى قطاعات الاقتصاد غير المهيكل بسبب المضايقات الأمنية ولا تبقى أمامهم حلول كثيرة: سلوكات إجرامية أو الهجرة غير النظامية «الحرق». طبعاً لا ينحصر التفكير في الهجرة على هذه المجموعة، فأغلب المستجوبين

-خاصة الذكور- يعتبرونها حلا جديا لوضعهم، لكن مع اختلاف في مدى تقبل مخاطر الهجرة غير النظامية خاصة لدى المستجويات.

بعض المستجوبين من أصحاب الشهادات الجامعية، ندم على استكمالهم التعليم العالي أو عدم «توفقه» في اختيار شعبة جامعية لها أفق تشغيلية، يعتبرون على محيطهم الذي لم يساعدهم في القيام بالاختيار الصائب ويلومون الدولة على عدم توافق عروضها التعليمية والتكوينية مع واقع البلاد الاقتصادي و«احتياجات السوق» وعلى ضعف المهارات العملية التي توفرها لهم خلال مرحلة الدراسة. حتى المعارف التي اكتسبها خلال مراحل تعليمهم أصبحوا يخافون أن تتبدد بالنسيان أو تفقد قيمتها بالتقدم. وأشارت بعض المستجوبين -خاصة الإناث- إلى أن الشهادة الجامعية قد تمثل عائقا في الحصول على بعض فرص الشغل لأن المستوى التعليمي لطالب الشغل أعلى من المطلوب في شروط صاحب العمل أو مناظرة الانتداب في القطاع العمومي.

هناك توافق في المجموعات البؤرية الثلاث فيما يخص تقييم السياسات التشغيلية للدولة فجلهم يعتبرون أنها غير ناجعة أو لا يمتلكون عنها معلومات كثيرة (بتاتا). يجمع أغلبهم أيضا على أن الخطاب الرسمي-وحتى الحزبي- حول البطالة والتشغيل ليس إلا مجرد أوهام تزدهر تجاريتها في المواسم الانتخابية. لا تحظى «مكاتب التشغيل والعمل المستقل» برضا المستجوبين، الكثير منهم يعتبر أنها مضيعة للوقت وأورد بعضهم شهادات عن تجارب سيئة مع هذه الهيئات. العاطلون الذكور الذين لا يحملون شهادات جامعية هم الأقل معرفة بسياسات الدولة التشغيلية والأضعف علاقة بمكاتب الشغل. في مجموعتي المخرجين الجامعات والعاطلات الإناث نلاحظ أن الاطلاع أكبر وان البعض انتفعوا بدورات تكوينية أو عقود وقتية أو منح ضمن برامج التشغيل العمومية خاصة المتعلقة ببعث المؤسسات والمبادرة الخاصة والعمل المستقل.

إزاء وضعية البطالة والتهميش والنتائج الهزيلة لبرامج الدولة التشغيلية وسياساتها يسعى جزء هام من المستجوبين إلى التحرك من أجل حقوقه والضغط على السلطات المحلية والمركزية. لكن هذا النضال الاجتماعي-الاقتصادي لا يمر كثيرا من بوابة «المؤسسات» الحزبية والجمعياتية فهناك انعدام ثقة طاغي في الموقف من الأحزاب وميل نحو الجمعيات «غير المسيسة»، ويفضل الحركات الاحتجاجية «العفوية» و«المستقلة» عن الأحزاب. الذكور العاطلين من غير حاملي الشهادات الجامعية هم الأكثر مشاركة في الاحتجاجات الميدانية والاشتباكات مع أجهزة الأمن، وكذلك الأكثر تعرضا للقمع.

عموما لا يثق غالبية المستجوبين في الطبقة السياسية التونسية -حاكمين ومعارضين- المهمة على المشهد في العشرة الأخيرة ولا يرجون منهم خيرا كثيرا فيما يخص امتصاص البطالة ومقاومة الفقر والتهميش. حتى رئيس الجمهورية، قيس سعيد، الذي حظي بدعم كبير من الشباب في حي التضامن -من بينهم الكثير من المستجوبين- وخارجه خلال الانتخابات الرئاسية في 2019 وعلقوا عليه آمالا عريضة لم يستطع أن يغير هذا الموقف من الطبقة السياسية إذ يرى جزء كبير من المستجوبين (خاصة في مجموعة العاطلين من حاملات الشهادات الجامعية) أن أدائه في السلطة -فيما يخص ملفات البطالة والتنمية- مثل خيبة أمل إضافية ولم يكن في مستوى التطلعات.

مراجع

كتب ومؤلفات جماعية

- BONO Irene, HIBOU Béatrice, MEDDEB Hamza et TOZY Mohamed. L'État d'injustice au Maghreb : Maroc et Tunisie. Karthala, 2015.
- BOUSNINA, Adel. Le chômage des diplômés en Tunisie. L'Harmattan 2013
- GAIED, Cyrine. Le chômage et l'insertion professionnelle des femmes en Tunisie. Editions universitaires Europeennes, 2021.
- بن حمودة، حكيم. الاقتصاد السياسي للثورة. ترجمة: عبد العزيز الجري، دار محمد علي الحامي للنشر، 2016.
- الصالح، الصغير. الاستعمار الداخلي والتنمية غير المتكافئة- منظومة التهميش في تونس. الشركة التونسية للنشر، 2019.
- «في سوسولوجيا الهوامش في تونس، دراسات في المناطق الحدودية والأحياء الشعبية»، اشراف محمد علي بن زينة- مريم عبد الباقي- ألفة لملوم. إنترناشونال ألرت تونس. الصفحات 153-181. الطبعة الأولى: مارس 2018، دار محمد علي الحامي للنشر.

تقارير ودراسات

- ALRIZA, Fadil, "L'impact et l'influence des institutions financières internationales sur le moyen-orient et l'afrique du nord". Etude éditée par la Friedrich Ebert Stiftung en 2013
- BEN AMOR, Mouldi. Le chômage des jeunes : déterminants et caractéristiques. Notes et Analyses de L'ITCEQ. 2012
- <http://www.itceq.tn/files/emploi/chomage-des-jeunes-determinants-caracteristiques.pdf>
- La jeunesse Tunisienne et l'économie informelle. Organisation internationale du Travail 2015. <https://bit.ly/3M8Bt7p>
- Rapport national sur l'emploi, IACE, Fondation FRIEDRICH Naumann pour la liberté, septembre 2018. <http://www.iace.tn/wp-content/uploads/201903//Rapport-National-sur-Emploi-2018.pdf>
- Inclusion sociale en Tunisie : Les enjeux de l'emploi, de l'éducation et de la répartition des revenus, Institut Tunisien de la Compétitivité et des Etudes Quantitatives (ITCEQ), Mars 2017.
- <http://www.itceq.tn/files/politiques-sociales/inclusion-sociale.pdf>

L'inventaire de l'emploi des jeunes en Tunisie : Trente ans de politiques de l'emploi (IEJ) / Bureau international du Travail. - Genève: BIT, 2015

https://www.ilo.org/wcmsp5/groups/public/---ed_emp/documents/publication/wcms_444914.pdf

La Révolution Inachevée Créer des opportunités, des emplois de qualité et de la richesse pour tous les Tunisiens, Banque Mondiale, Mai 2014

https://www.banquemonde.org/content/dam/Worldbank/document/MNA/tunisia_report/tunisia_report_the_unfinished_revolution_fre_synthesis.pdf

البدوي، عبد الجليل. أي برنامج إنقاذ عاجلا واي بديل تنموي آجلا. المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، تونس، 2018

<https://ftdes.net/rapports/crise.alternatives.pdf>

شباب في الهوامش. تمثلات المخاطر والسياسة والدين في تطاوين الشمالية والقصرين الشمالية) ودوار هيشر، تحت إشراف محمد علي بن زينة وألفة لملوم ومريم عبد الباقي. إصدار إنترناشيونال أرت، تونس، نوفمبر 2020

مقالات وورقات بحثية

الحاج سالم، جهاد. مسارات التطرف الجهادي وتجارب الإقصاء اليومي عند شباب الأحياء الشعبية: محاولة في الفهم. إصدارات مركز دعم التحول الديمقراطي وحقوق الإنسان، تونس 2020. <https://PDF-jihed-haj-salem.pdf/09/daamdth.org/wp-content/uploads/2020>

بوسنينة، عادل. بطاقة الشباب وإشكالية التشغيل في تونس. مجلة الحوار المتوسطي، المجلد 12، العدد 1، أبريل 2021. جامعة الجيلالي ليابس سيدي بلعباس- الجزائر.

عبد المولى، محمد رامي. الاقتصاد التونسي تحت حكم بن علي: ريع وزبائنية بمباركة دولية. مجلة المفكرة القانونية، العدد 24، ديسمبر 2021. <https://bit.ly/39fQq9s>

غربالي، فؤاد. سوسيوولوجيا المعاناة من خلال المعيش اليومي لشباب الأحياء الشعبية. مجلة «عمران»، العدد 15 (ربيع 2016). المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

لملوم، ألفة. الهوامش رافعة الحراك الاحتجاجي في تونس ألفة لملوم، موقع السفير العربي، 14 / 04 2016 / <https://assafirabi.com/ar/4905>

BLAVIER, Pierre. SOCIOGENÈSE DE LA RÉVOLUTION TUNISIENNE : EXPANSION SCOLAIRE, CHÔMAGE ET INÉGALITÉS RÉGIONALES. Le Seuil | « Actes de la recherche en sciences sociales » 2016/1/ N° 211212- <https://www.cairn.info/revue-actes-de-la-recherche-en-sciences-sociales-20161--page-55.htm>

ZAIRI, Mouna. L'ambiance comme enjeu politique. Etude sensible d'un quartier populaire de Tunis lors du processus révolutionnaire. Ambiances, tomorrow. Proceedings of 3rd International Congress on Ambiances. Septembre 2016, Volos, Greece, Sep 2016, Volos, Grèce. p. 725 - 730. hal-01409714



حي سلا القديمة، المغرب

فوزي بوخريص

مقدمة

يتعلق الأمر بدراسة كيفية تبحث في مسارات شباب عاطل عن العمل وتتكشف مسارات البطالة والهشاشة في إطار الحياة اليومية لهؤلاء الشباب. يمكن صياغة سؤال انطلاق الدراسة كما يلي:

كيف يعيش الشباب ويعاني ويتعاطى مع البطالة؟

هذا السؤال يؤول إلى الأسئلة الفرعية التالية:

- ما هو وقع البطالة على الشباب؟
- ما هي الاستراتيجيات التي يتبعها الشباب لدرء تأثيرات البطالة والهشاشة؟
- ما هي تصوراتهم وتجاربهم حول السياسات العامة في هذا المجال؟
- ما هي تجاربهم في التنظيم الجماعي وفي مقاومة هذا الوضع؟
- تسعى الدراسة إلى معالجة هذه الأسئلة الفرعية، عبر أربعة مداخل هي:
- تأثير البطالة على الصحة النفسية وعلى علاقات الشباب بمحيطهم العائلي والمباشر.
- استراتيجيات الشباب في العيش وسبل مواجهتهم للبطالة ومسارات هشاشتهم، من خلال البحث عن عمل ومحاولات تحسين شروط العمل.
- السياسات العمومية المحلية في مسارات الشباب.
- الحراك الاجتماعي والنسيج الجمعياتي وتجارب الشباب.

تكمّن أهمية البحث في أنه لا يكتفي فقط باستجلاء الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لشباب الاحياء الشعبية، مثل حي المدينة العتيقة بسلا، بل يحاول معاينة تأثير البطالة عليهم واستقراء ما يفعلون في خضم وضعية البطالة. هذا علاوة على رصد الآراء التي يبديها المشاركون والمشاركات من الشباب إزاء السياسات العمومية المعتمدة في مجال التشغيل بدرجة أولى، وفي علاقتها بالسياسات العمومية ذات الصلة (التربية والتكوين)، وبالحيات الحضرية والسكن في الأحياء الشعبية عموماً..

بروتوكول البحث

تعتمد الدراسة مقارنة نوعية، تركز على الإنصات الجيد إلى ثلاث مجموعات بؤرية من الشباب والشابات ذوي مواصفات Profils متميزة، من أجل استكناه تجاربهم وانتظارهم وتطلعاتهم

والبدائل الممكنة التي يقترحونها، ومن خلال ذلك الكشف عن تمثلات ممارساتهم وسجلات تبريرهم Registres de justification .

انجزت الدراسة في «المدينة القديمة» بسلا، باعتماد أدوات بحث كيفية، وهي: الملاحظة الاثنوجرافية؛ والمقابلة الفردية؛ وبشكل خاص المجموعات البؤرية.

الملاحظة الاثنوجرافية: تم إنجازها على امتداد عشرة أيام في الفترة الممتدة من 26 يناير إلى 4 فبراير 2022، وقد أتاحت معرفة أولية حول عالم «المدينة العتيقة» وأحوال الناس في شكلها الأولي والخصائص العامة المميزة للحياة هناك، كما سمحت لفريق البحث بالتواصل مع المشاركين والمشاركات المفترضين للحضور في المجموعات البؤرية فيما بعد، هذا مع العلم أن هذه الاتصالات واللقاءات لم تركز على فئة الشباب بشكل حصري، بل همت أيضا فئات أخرى من ساكنة «المدينة القديمة»، من النساء والرجال..

المقابلات الفردية: يتعلق الأمر بتسع مقابلات فردية تم إنجازها بشكل أساسي مع شباب من الجنسين (5 شابات و4 شباب)، تتراوح أعمارهم ما بين 18 سنة و30 سنة. أنجزت المقابلات بالموازاة مع الملاحظة الاثنوجرافية، وذلك من أجل التعرف الأولي على تجاربهم مع وضعية البطالة داخل المدينة القديمة، واستكشاف آرائهم حول السياسات العمومية ذات الصلة...وقد تفاوتت مدة إنجاز كل واحدة بين 45 دقيقة على الأقل و90 دقيقة على الأكثر..

وتجدر الإشارة إلى أن إجراء المقابلات مع هؤلاء الشباب لم يكن يستهدف معرفة أحوال «الشباب العاطل» وكل التفاصيل ذات الصلة فقط، بل كان يروم انتقاء بعض هؤلاء الشباب من أجل المشاركة في المجموعات البؤرية التي تمثل محور إجراء البحث الميداني الخاص بهذه الدراسة...

المجموعات البؤرية: يتعلق الأمر بثلاث مجموعات بؤرية، أنجزت يوم الأحد 6 فبراير 2022، استغرقت كل واحدة منها ما بين 2 إلى 3 ساعات. وصل عدد المشاركين فيها 25 فردا (13 شاب و12 شابة)، تراوحت أعمارهم ما بين 18 سنة و31 سنة. وقد شملت الفئات الآتية:

المجموعة البؤرية الأولى: تضم شبابا ينتمون إلى المدينة العتيقة بسلا، عاطلون عن العمل، ويتميزون بوضع اجتماعي واقتصادي غير مستقر.

المجموعة البؤرية الثانية: تتكون من شابات يعشن في المدينة العتيقة بسلا، عاطلات عن العمل، ويتميزن بوضع اجتماعي واقتصادي غير مستقر.

المجموعة البؤرية الثالثة: مختلطة من الشباب والشابات، الذين يعيشون جميعا في المدينة العتيقة بسلا، هم خريجون عاطلون عن العمل يتميزون بوضع اجتماعي واقتصادي غير مستقر..

اعتمد إنجاز المجموعات البؤرية على دليل تنشيط، يتضمن الأسئلة الأساسية الموجهة لإشكالية الدراسة، والتي تتوزع إلى أربع محاور رئيسية، هي:

الآثار النفسية والاجتماعية للبطالة على الشباب.

استراتيجيات الشباب لمقاومة تأثيرات البطالة والهشاشة.
تصورات الشباب وتجاربهم حيال سياسات التشغيل.

الشباب والفعل الجماعي: أي تجارب المقاومة؟

وتطلبت عملية تنشيط المجموعات البؤرية العمل بمعية فريق من الباحثين المساعدين، من أجل تقاسم الأدوار بين الذي ينشط والذي يلاحظ ويقوم بأخذ النقط والذي يقوم بالتسجيل الصوتي، بعد أخذ موافقة المشاركين²⁶.

فضاء البحث

فضاء البحث هو حي «المدينة العتيقة» بمدينة سلا، أحد المراكز الحضرية المهمة بجهة الرباط-سلا-القنيطرة.

أنجز هذا البحث الميداني على مدى عشر أيام من الاستكشاف والاستطلاع الأولي للمدينة القديمة بسلا، وهي بطبيعة الحال مدة غير كافية لإجراء استطلاع سوسيولوجي وأثنوبولوجي معمق على غرار ما قام به مثلا الأثنوبولوجي كنيث براون (K. Brown) الذي قضى سنتين من البحث الميداني أو ما يزيد بين ظهراي «أهل سلا»²⁷. إلا أن جولتنا ولقاءتنا مع بعض الأشخاص الموارد personnes ressources داخل «المدينة القديمة» طيلة أيام البحث، مكنتنا من تسجيل جملة من الملاحظات.

إذ، ليس صعبا على الزائر في الحقيقة ألا يعرف «المدينة القديمة». فكما هو حال باقي المدن القديمة بالبلاد، بصرف النظر عن بعض مظاهر الاختلاف، فهناك بعض الخصائص المشتركة؛ لعل من أبرزها السور الذي يحيط بكل جنباتها وواجهاتها، إلى جانب الأبواب بطبيعة الحال. يتعلق الأمر بمدخل للحبي، على شكل أبواب كبيرة مثل «باب لمريسة» و«باب الخميس» و«باب سبتة» و«باب بوحاجة» و«باب شعفة»، «باب دار الصناعة»...

من الناحية الجغرافية، تقع «المدينة القديمة» بمقاطعة باب لمريسة بالشمال الغربي لمدينة سلا، يحدها شمالا مقاطعة لعبايدة، وجنوبا نهر أبي رقراق، وشرقا مقاطعتي تابريكت وبطانة، وغربا المحيط الأطلسي.

قبل دخول «المدينة القديمة»، يلاحظ الزائر القادم من مدينة الرباط، مثلا، وهو يعبر قنطرة الحسن الثاني تواجد ساحة كبيرة تمتد من مارينا إلى «باب الخميس»، وهي ساحة تتواجد فيها ملاعب القرب وساحات مهياة للعب يستفيد منها أبناء المدينة من الجنسين عموما (خصوصا الشباب)، فضلا عن حدائق صغيرة مخضرة وبطبيعة الحال المركز الرقمي للتليح الذي ملأ الساحة مؤخرا...

26 يتطلب تنشيط المجموعات البؤرية العمل في إطار فريق، أكثر من أي أداة أخرى. أنظر للمزيد: Sophie Duchesne et Florence Haegel, L'entretien Collectif, éd Armand Colin, Paris, 2009.

27 Kenneth L. Brown « Les gens de Salé. Les Slawis : Traditions et changements », éd Eddif, Casablanca, 2001.

لما نلج المدينة القديمة يتبين أن عالما جديدا في انتظارنا مختلف تماما عن العالم الذي كنا نتحرك فيه قبل لحظات من ولوجنا. كل شيء يتغير: الروائح والأشكال والأصوات وإيقاع الحياة. معروف أن المدينة القديمة، مثل خلية نحل، ما تفتأ تعرف فيها حركة الناس الهدوء، إلا أن إيقاع الحركة يتغير حسب فترات النهار وحسب الأيام كذلك. وشيئا فشيئا يتأكد هذا الانطباع لدينا ويصير أكثر وضوحا، كلما تقدمنا في السير.

وإذ كان واضحا أن هناك خصائص عامة تنسحب على المدينة القديمة، فهذا لا يعني أن هذا المجال متجانس ومتناغم، فهو يجمع ساكنة متميزة ومتفاوتة على مستوى الدخل والظروف الاقتصادية والاجتماعية، وفي نمط العيش والمعيشة والإقامة ونوع الأنشطة على اختلاف أشكالها (الأنشطة التجارية والحرفية والخدماتية...)، وحتى على مستوى نوع المرافق العمومية المتوفرة...

عرفت المدينة العتيقة، مثلها مثل باقي أحياء مدينة سلا، تدفقات هجرية مكثفة²⁸، أدت إلى ارتفاع الساكنة الحضرية، حيث تقطن نسبة % 93,2 من ساكنة سلا، البالغة أزيد من 500.000 نسمة، في الوسط الحضري، وتبلغ الكثافة السكانية بالمدينة 1462 نسمة في الكلم². كل ذلك جعل مدينة سلا أول قطب في جهة الرباط-سلا -القنيطرة لاستقبال المهاجرين²⁹، القادمين من المدن والقرى الداخلية. وعلى الرغم من أن هؤلاء المهاجرين غادروا مدنهم وقراهم بعد أن ضاقت بهم السبل، وجاؤوا إلى مدينة سلا، وغيرها من المدن الساحلية، يحركهم أمل العثور على عمل لم يعد متاحا بمدنهم وقراهم الداخلية، إلا أنهم اصطدموا عند بلوغهم وجهتهم، بوسط حضري صار أقل فأقل خلقا لفرص العمل، بل وأدى تدفقهم بأعداد كبيرة إلى تفاقم ظاهرة البطالة وانتشار مدن الصفيح والسكن العشوائي وإلى تآمي أنشطة العمل غير المهيكلة..

وعلى مستوى واقع البطالة بالمدينة، يلاحظ أنه في الوقت الذي وصل معدل نشاط السكان البالغين 15 سنة فأكثر بالمدينة 39,7 % سنة 2016، سجل معدل البطالة بها أعلى نسبة بالجهة، إذ وصل إلى 13,5 %. وتتميز البطالة بسلا بكونها ظاهرة حضرية، تمس النساء أكثر من الرجال، والشباب الحاصل على الشهادات أكثر من غيره³⁰...

وما يعمق الوضعية الصعبة لشباب مدينة سلا، ولأحيائها الشعبية، ومنها «المدينة العتيقة»، هو أن مدينة سلا، تحولت بكل أحيائها، خصوصا الهامشية منها (مثل المدينة العتيقة) إلى «مدينة-مرقد ville-dortoir تابعة للعاصمة الرباط، ومدينة أشبه بمتحف للماضي»³¹، أي مدينة رهينة للماضي أكثر مما هي متطلعة للمستقبل. فالتمثل المهيم حول المدينة هو أنها مدينة

28 بدأت هذه التدفقات الهجرية مبكرا، وبالضبط منذ نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، عندما بدأت تبرز مدن الواجهة الأطلسية -ومنها مدينة سلا- على حساب شبكة المدن والقرى الداخلية، بفعل اختيارات السياسة الاستعمارية. حيث لم تكن ساكنة الرباط وسلا مجتمعيتين، تتجاوز في بداية القرن العشرين 50.000 نسمة، لكنها تضاعفت سنة 1951 أربع مرات، لتبلغ 203.000 نسمة، ولتصل سنة 2019 (أي ستة عقود بعد استقلال البلاد) حوالي 1,6 مليون نسمة. وقد عرفت الزيادة الإجمالية للساكنة الحضرية لمدينة سلا، بفعل الهجرة من المدن والقرى الداخلية، ارتفاعا متسارعا بين سنوات الستينيات وبدايات الثمانينيات، متجاوزة عتبة % 50 ... أنظر على سبيل المثال:

Abdellatif Lafrakh, Croissance démographique et dynamique urbaine au Maroc, in Actes du colloque de Rabat, mai 1990, Publication de l'Association internationale des démographes de langue française, 1993 p167-176.

Publication de la Direction Régionale du ministère de l'Aménagement du Territoire National, de l'Urbanisme, de l'Habitat et de la Politique de la Ville, Monographie Régionale sur le secteur de l'habitat, REGION DE RABAT-SALE-KENITRA Année 2019.-

29 منوغرافية جهة الرباط سلا القنيطرة، منشورات المندوبية السامية للتخطيط، المديرية الجهوية الرباط سلا القنيطرة، 2017. ص 25.

30 منوغرافية جهة الرباط سلا القنيطرة، نفس المرجع. ص 73.

31 Kenneth L. Brown « Les gens de Salé. Les Slawis : Traditions et changements », éd Eddif, Casablanca, 2001.

عريقة وجميلة ومحبوبة، لكنها مع ذلك متخلى عنها، على مستوى السياسات العمومية التي تهم التشغيل والتربية والتكوين، لا سيما بالنسبة للشباب، الذي يمثل مستقبل المدينة. هذا الاهتمام للمدينة ولأحيائها الشعبية بشكل خاص، أدى إلى تفتشي عدد من الظواهر السلبية، لا سيما في صفوف الشباب، وعلى رأسها ظواهر الجريمة والجنوح والعنف.

وباستقراء إحصائيات المندوبية السامية للتخطيط، ووزارة التشغيل والتكوين المهني، ووزارة التعليم - قطاع التعليم العالي وغيرها من الهيئات ذات الصلة بالموضوع، يتضح بأن أكبر مشكل يعترض الشباب بالمغرب يتمثل في الولوج إلى الشغل. ويمثل الشباب من فئة 15-34 سنة 11,7 مليون نسمة، أي 37 بالمائة من مجموع السكان، ويبلغ عدد النشيطين من هذه الفئة العمرية 5,6 ملايين، أي ما يمثل نسبة نشاط تصل إلى 48 %، وهي نسبة أدنى بقليل من المعدل الوطني (49,6) %³² ..

أما بنية الساكنة النشيطة حسب الشهادات المحصلة، فتبين هيمنة فئة «دون شهادة» على المستوى الوطني، التي تمثل 62,3 % من المجموع، مقابل 25,7% من الذين يتوفرون على شهادة متوسطة، و 12 % من حاملي الشهادات العليا. كما يتبين بأن الشباب أكثر الفئات عرضة للبطالة، فعلى سبيل المثال، بلغ عدد الأشخاص الذين يعانون من البطالة في سنة 2010 مليون شخص، 80 % منهم شباب، تبلغ أعمارهم ما بين 15 و34 سنة (و 39 % من الفئة العمرية 15-24 سنة، و41 % من الفئة العمرية 25-34 سنة) ...

ورغم أن نسبة البطالة قد عرفت تحسنا ملموسا على العموم، إلا أنها تظل مرتفعة بالنسبة إلى كثير من فئات الساكنة، وخصوصا الشباب ما بين 15 و24 سنة في الوسط الحضري. ويعود هذا الوضع في جزء منه إلى ضعف قدرة الاقتصاد الوطني على إحداث مناصب شغل. فعلى سبيل المثال، لم يحدث الاقتصاد الوطني ما بين 1999 و2010 سوى 1,6 مليون منصب شغل إضافي، في حين انتقل تعداد الساكنة النشيطة خلال الفترة ذاتها من 8,8 إلى 10,4 ملايين³³ ...

كما يظهر من الإحصائيات الرسمية، بأن الشباب حاملي الشهادات أكثر تضررا من البطالة، ذلك أن نسبة البطالة بين حاملي الشهادات من المستوى العالي مرتفعة بالمقارنة مع نظيرتها لدى غيرهم من الفئات. ولعل الوضعية المفارقة هنا أن منحى النجاة من البطالة يمضي في تناسب عكسي مع منحى مستوى الحصول على شهادات عليا، فالشهادة لا تضمن الشغل، ولا تتيح الحراك الاجتماعي La mobilité sociale كما يتبين من خلال الإحصائيات بأن الشباب أكثر عرضة للبطالة طويلة الأمد، التي صارت خاصية مميزة لسوق الشغل الوطنية، كما المحلية. ومعلوم أنه كلما طالت مدة البطالة يصبح الإدماج أصعب. ولعل هذا ما يفسر أن تشغيل الشباب يظل غير مستقر، ويتميز بهشاشة كبيرة وبانعدام الاستقرار، فالمناصب التي يشغلها الشباب غالبا ما يكون أجرها ضعيفا، وقلما تكون تعاقدية، وقليل ما تحظى بتغطية من نظام للحماية الاجتماعية؛ فأكثر من 40% بالمائة من الشباب يمارسون أعمالا غير مؤدى عنها، إذ يشتغلون

32 تقرير المجلس الاقتصادي والاجتماعي والبيئي، تشغيل الشباب، 2011، ص 21.
أنظر التقرير على موقع المجلس على الانترنت: www.ces.ma.

33 نفس المرجع، ص 22.

بالأساس في أنشطة المساعدة العائلية. كما أن أقل من 10 % من الشباب يتمتعون بتغطية صحية، إضافة إلى أن أكثر من 8 أجراء شباب من أصل عشرة (وحوالي نصف حاملي الشهادات العليا) يشتغلون دون أي عقد عمل، كما تبلغ نسبة العمالة الناقصة في صفوف الشباب 17,3 % بالمائة³⁴.

ولا بد من الإشارة هنا إلى صعوبة الحصول على معطيات إحصائية خاصة بالشباب في مجال دراستنا هذا (حي المدينة العتيقة بسلا) وبوضعيتهم السوسيو-اقتصادية. فرغم أهمية المعطيات الإحصائية المتضمنة في مختلف إحصاءات، وخرائط وبحوث المندوبية السامية للتخطيط، إلا أن ما يتم نشره وتعميمه منها يبقى مركزيا جدا وغير محين، ولا يستحضر المستويات الترابية المحلية (الجهة-الجماعة-المدنية) إلا بشكل محدود وجزئي، إذ يظل أدنى مستوى ترابي، يتم تغطيته إحصائيا، هو الجماعة (الحضرية أو القروية) أو المركز الحضري: يتعلق الأمر في حالتنا هذه بالجماعة الحضرية «باب لمريسة» التي تحتضن حي «المدينة العتيقة». وحتى في هذه الحالة، فما تشير إليه معطيات المؤسسة الإحصائية الوطنية (المندوبية السامية للتخطيط)، بخصوص موضوع دراستنا يظل محدودا وجزئيا، حيث تكشف معطيات الإحصاء العام للسكان والسكنى الأخير (2014)، على سبيل المثال، بأن ساكنة جماعة باب لمريسة تبلغ 174.934 نسمة، يمثل فيها الشباب البالغ من العمر ما بين 20 و29 سنة، نسبة 16,3 % (والشباب البالغ من العمر ما بين 15 و34 سنة، نسبة 32 %)، وأن نسبة البطالة في جماعة باب لمريسة تبلغ عموما 18,8 %، وأن هذه النسبة تتأرجح بحوالي الضعف بين الرجال (14,6 %) والنساء (27,0 %)..

والواقع أن قلة الأنشطة والخدمات والمؤسسات الكفيلة بتوفير فرص الشغل للشباب، في حي «المدينة القديمة» وبعده عن الأحياء والمدن التي تتوفر على فرص حقيقية للشغل، تلك التي تحتضن مناطق صناعية وإدارية وخدمانية... الخ، هذا إضافة طبعا إلى ما يتميز به حي المدينة القديمة، على غرار باقي الأحياء الشعبية بسلا (حي سيدي موسى، حي الانبعاث، حي القرية...)، من انتشار لظواهر الجريمة والجروح والعنف والشعور بغياب الأمن والتحرش بالنسبة للإناث، ظواهر تحولت بفعل تكرارها واستمراريتها، إلى علامات وصم للحى ولساكنته، تؤثر على حظوظ شبابه في إيجاد شغل خارج أسوار حيهم، وتفاقم بالتالي من احتمال ارتمائهم في برائن الجريمة والجروح والعنف، كما سنرى لاحقا..

وتجدر الإشارة إلى أن كل ما أشرنا إليه بخصوص وضعية الشباب عموما، وشباب المدينة العتيقة بسلا بشكل خاص، ينبغي أن يأخذ بعين الاعتبار مسألة الحركة المجالية *mobilité spatiale* للسكان الحضرية اليوم، وخصوصا الشباب. ومعنى ذلك، أنه لا يمكن اعتبار الشباب، شبانا لحيهم أو لجماعتهم الحضرية فقط، وبشكل حصري، فحياتهم اليومية أكبر من أن تحصر بين جنبات مرافق الحي وفضاءاته وساحاته، فهي تجري بفضل حركيتهم المكثفة، في مختلف أحياء وفضاءات المدينة، لا سيما عندما يتعلق الأمر بمدينة ذات نزوع ميتربولتاني³⁵، مثل مدينة الرباط...

34 نفس المرجع، ص 24.

35 Authier Jean-Yves. Le quartier à l'épreuve des « mobilités métropolitaines ». In : Espace, populations, sociétés, 19992. Les mobilités spatiales. pp. 291306-.

الدراسات السابقة

يبدو البحث العلمي الحقيقي مثل لبنة في بناء. فهو ليس ابدا قفزا في الفراغ، إنه غالبا اعادة صياغة لسؤال طرح من قبل أو استعادة لمعطيات اشكالية مفتوحة، ساهم في بلورتها وتدقيقها عدة باحثين. وبخصوص الدراسات السابقة حول الموضوع، نشير على الخصوص إلى أن الأبحاث حول الشباب، وخصوصا تلك التي تنطلق من أبحاث سوسيولوجية ميدانية، قليلة نسبيا. وهذا يؤكد ما سبق أن لاحظته عدد من الباحثين المهتمين بالموضوع، «فوضع الشباب مفارق في مجال الأبحاث السوسيولوجية بالمغرب، فهو كفتة اجتماعية مهيمن في الواقع، لكن يتم التعامل معه كموضوع مهممل في مجال البحث في حقل العلوم الاجتماعية»³⁶...

البحث الميداني الأقدم أنجزه أندري آدم André Adam سنة 1962، تناول فيه واقع الشباب المغربية، وبالتحديد فئة تلاميذ التعليم الاعدادي والثانوي المتراوحة أعمارهم ما بين 15 و22 سنة، في كل من الدار البيضاء، باعتبارها نموذجا للمدينة الحديثة الكبرى بالمغرب، غير مثقلة بالتقاليد، وحيث التطور سريع وعميق، وفي فاس بوصفها نموذج المدينة التقليدية، التي يمكن اتخاذها شاهدا لفهم ما يجري في الدار البيضاء³⁷. شمل البحث 418 تلميذا، يتوزعون إلى: 293 تلميذ (184 فتى و109 فتاة) من الدار البيضاء (70%) و 125 تلميذا (72 فتى و53 فتاة) من فاس (30%). اعتمد البحث تقنية الاستمارة، تتضمن 90 سؤالا، تتوزع إلى محاور تشمل الوضعية الدراسية، والاسرية والاجتماعية للتلاميذ ومساهمهم الدراسي ومسألة التوجيه، ثم محور الترفيه والذوق في مجال الموسيقى والسينما والقراءة، ومسألة الزواج وتربية الاطفال وغيرها من الاسئلة، التي تنوعت حسب الجنسين³⁸..

قبل بحث أندري آدم، سبق «لروبير مونتغن» (Robert Montagne) أن تناول في عشرينيات القرن الماضي، موضوع الشباب في كتابه «ثورة بالمغرب Révolution au Maroc»، والذي حاول فيه فهم السبب الذي يجعل الشباب الحضري بالمغرب ينزع إلى المقاومة العنيدة لمؤسسات الحماية، ويتجه بالمقابل إلى التضامن كليا مع القومية العربية وإلى احتضان أفكارها القادمة من المشرق³⁹. هذه الدراسة، هي ترجمة لرغبة المقيم العام ليوطي من أجل استباق الصعوبات التي سيطرحها الشباب المغربية المتمدرسين⁴⁰.

البحث الميداني الموالي حول الشباب أنجزه فريق من الباحثين، تحت إشراف بول باسكون والمكي بن الطاهر سنة 1969، وانصب بشكل أساسي على الشباب القروي ما بين 14 و18 سنة⁴¹. ويتعلق الأمر بشباب ذكور، وبالأحرى مراهقين ذكور، كما أوضح أصحاب الدراسة. وتمحور البحث حول رصد آراء المبحوثين حول مواضيع عديدة ومتنوعة تشمل: المدرسة، الترفيه، الصداقات، الشغل، الجنسية، المخزن، المال، الأسرة، المرأة، الماضي والمستقبل.

36 R. Bourqia et autres, Les jeunes et les valeurs religieuses, éd Eddif-Codesria, Casablanca, 2000.p9

37 André Adam, une enquête auprès de la jeunesse musulmane au Maroc, Aix-En -Provence, Annales de la Faculté des Lettres, 1962.p.11

38 Ibid.p7.

39 Robert Montagne, Révolution au Maroc, éd France Empire, Paris, 1953.p301.

40 Hassan Rachik, Jeunesse et changement social, in 50 ans de développement humain, Perspectives 2025, Rapports thématiques, Société, Famille et Jeunesse, pp. 193215-.

41 Paul Pascon et autres, Ce que disent 266 jeunes ruraux, in Bulletin Economique et social du Maroc, Janvier-Juin, 1969, p1144-.

والواقع أنه، باستثناء بحث محمد الطوزي الذي أنجز سنة 1982-1983، والذي هم 400 طالبا، فإن باقي البحوث أنجزت خلال سنوات التسعينيات.. حيث يلاحظ تزايد نسبي للأبحاث الميدانية السوسولوجية حول الشباب، مع مستهل هذا العقد. ففي سنة 1992، أنجز فريق من الباحثين، يضم عددا من علماء الاجتماع المغاربة مثل رحمة بورقية، والمختار الهراس، وادريس بنسعيد، بحثا ميدانيا كميًا هم 500 طالبا بالرباط، وانصب على دراسة علاقات الطلبة بالجامعة، والأسرة والقيم.⁴²

وخلال سنوات التسعينيات أنجزت الباحثة «مونية بناني الشرايبي» (Mounia Bennani-Chraïbi) بحثا هاما حول الشباب والاحتجاج بالمغرب⁴³، يتقاطع إلى حد كبير مع دراستنا هذه. ولا شك أن دراسة الشرايبي التي صدرت سنة 1994، مهمة منهجيا، لاعتمادها بحثا ميدانيا، يوظف الملاحظة بالمشاركة، وحكايات الحياة وتأمل الحياة اليومية، بما يفيد استكشاف تمثلات وسلوكات الشباب حول الموضوع المدروس. والدراسة هامة أيضا بموضوعها المنصب على الشباب الحضري la jeunesse urbaine المتعلم غير المندمج في المجتمع، والذي يجد نفسه في وضعية سوسيو-اقتصادية وثقافية صعبة، لا تتلاءم مع تطلعاته وانتظراته...

في زمن الدراسة، أي في سنوات التسعينيات، كانت الساكنة الحضرية تقارب عتبة 50 في المائة، أي أن الضغوطات والتوترات بدأت تنتقل إلى المدن. وكما أوضحت البثثة في متن الدراسة، فانطلاقا من الاستقلال، تمكنت الملكية من ضبط الجبال والقرى والتحكم فيها، بينما تميزت المدن بانفلاتها الدوري وتمردها على السلطة، وتحولها إلى مسرح للاحتجاجات والانتفاضات التي يغذيها الشباب: حدث ذلك مثلا في منتصف الستينيات وبداية الثمانينيات، ومستهل التسعينيات..... الخ.

اختيار الشرايبي التركيز على الشباب الحضري المتمدرس، راجع لسببين أساسيين: أولاً، لأن الأمر يتعلق بفئة اجتماعية متعلمة، تمكنت من اكتساب رأسمال ثقافي، يتيح لها الولوج إلى الثقافة المكتوبة، ويسمح لها كباحثة جمع المعطيات والتحقق من الفرضيات بيسر أكبر. وثانياً، لأن المشكل المحوري في مغرب ما بعد الاستقلال، هو مشكل اندماج الشباب: مشكل هذه الفئة من الساكنة، التي بقدر ما نشأت تحتضن الحلم الجماعي لما بعد الاستقلال (الحلم بمغرب)، بقدر ما اصطدمت بواقع محبط لتطلعاتها ومخيّب لانتظراتها، بفعل أزمة التعليم، الذي لم يعد يمثل محركاً أو مصعداً للارتقاء الاجتماعي، وبسبب ضيق سوق الشغل واتساع دائرة البطالة، التي مست أصحاب الشهادات أكثر مما طالت الساكنة النشيطة غير المتمدرسة...

في سنة 1996، أنجز فريق من الباحثين، تحت إشراف رحمة بورقية ومحمد العيادي والمختار الهراس وحسن رشيق، بحثا ميدانيا حول الممارسات والقيم الدينية لدى الشباب، هم أكثر من 800 طالب وتلميذ في الرباط. وينطلق أصحاب هذا البحث، من أن أهمية تناول موضوع الشباب، وقيمه، ومواقفه وسلوكاته، تجد مبررها في البعد العددي المهم لهذه الفئة الاجتماعية بالمغرب، وفي الدور الذي تلعبه في دينامية التحولات الاجتماعية الجارية، بالنظر إلى أنها

42 Rahma Bourqia, M. El Harras, et D. Bensaïd, Jeunesse estudiantine marocaine, valeurs et stratégies, publication de la Faculté des Lettres et Sciences Humaines, Rabat, 1995.

43 Mounia Bennani-Chraïbi, Soumis et rebelles, les jeunes au Maroc, éd CNRS, Paris, 1994.

حاملة لمؤشرات هذه التحولات وللانحرافات التي تواجها والتي تخترق المجتمع المغربي⁴⁴...

ولعل من الدراسات المهمة حول الشباب، الدراسة التي أنجزها الانثروبولوجي المغربي حسن رشيق، في إطار تقرير الخمسينية (خمسين سنة بعد استقلال البلاد)، الصادرة سنة 2005، والموسومة ب «الشباب والتغير الاجتماعي»⁴⁵. وتعود أهمية هذه الدراسة إلى أنها تعرضت للإشكالات النظرية والإبستمولوجية التي يطرحها تناول موضوع الشباب بالمغرب، وقدمت قراءة فاحصة للدراسات السابقة حول الموضوع، وانطلاقا من ذلك قاربت التغيرات المهمة التي أثرت على الشباب المغربي في علاقاته مع الشغل والسياسة ومع الديني والأسرة، مبرزة أهم التحولات الاجتماعية التي جرت خلال العقود الخمسة الأخيرة التي أعقبت استقلال البلاد.

وإجمالا، تتميز الدراسات السابقة حول موضوع الشباب بالمغرب، بمميزات أهمها: أنها انصب أكثر على الشباب الحضري، واهتمت أكثر بفئة التلاميذ والطلبة، بينما انحصرت مثلا الأبحاث حول الشباب القروي في البحث الذي أنجزه باسكون وفريقه، كما أن مجمل الأبحاث المنجزة اعتمدت مقارنة كمية للموضوع، ووظفت تقنية الاستمارة غالبا، ولم تلجأ لتقنية المقابلة إلا نادرا. إضافة إلى أن أغلب تلك الأبحاث لم يتناول مسألة دقيقة، بل سلسلة قضايا، كما لو أن كل بحث حول الشباب يقدم نفسه باعتباره استكشافيا. ربما ذلك راجع بالأساس إلى غياب تقليد عريق في الأبحاث حول الشباب، الأمر الذي دفع الباحثين إلى طرح أقصى ما يمكن من القضايا⁴⁶. كما تميزت تلك الأبحاث أيضا بتناول موضوع الشباب في العلاقة مع مسائل القيم والتمثلات، على حساب الاهتمام بوضعية الشباب في العلاقة مع السياسات العمومية الموجهة إليهم على مستوى الشغل والبطالة، والتكوين والصحة والسكن... الخ. من هنا أهمية هذه الدراسة التي تطمح إلى تجاوز حدود الدراسات السابقة.

طلب التقرير

من العوائق النظرية والإمبريقية التي تواجه كل من يبحث في موضوع الشباب، العائق المرتبط بمفهوم «الشباب» نفسه، باعتباره مقولة اجتماعية غير متجانسة⁴⁷. لكن على العموم هناك طريقتين لتعريف المفهوم:

الطريقة الأولى تطابق الشباب مع فئة عمرية ما، كما هو الحال مع الفئة العمرية 15 - 24 سنة، كما نجد في أديبات الأمم المتحدة (اليونسكو، FNUAP...) أو في وثائق جامعة الدول العربية، أو مع الفئة العمرية 18-30 سنة، كما نجد في دراسات وأبحاث علمية⁴⁸، ومنها دراستنا هذه، أو حتى فئة عمرية غيرها.

44 R. Bourqia et autres, Les jeunes et les valeurs religieuses, éd Eddif-Codesria, op, cit. p11.

45 Hassan Rachik, Jeunesse et changement social, op.cit., pp. 193215-.

46 Ibid, pp. 193215-.

47 Ibid, pp. 193215-.

48 Ibid, pp. 193215-.

أما الطريقة الثانية، فتستند إلى معايير كيفية أو نوعية سوسيو-ثقافية تستحضر أهم الانتقالات من حياة الطفولة والمراهقة إلى حياة الراشد، والتي تشمل أساسا: الزواج وتأسيس أسرة، والولوج إلى سوق الشغل والولوج إلى سكن مستقل⁴⁹. ولو أن الوضع الأنسب يكون بالجمع بين الفئات العمرية ما بين 18 و30 سنة، وبين المعايير الأساسية الثلاثة الموافقة للعتبات الأساسية للولوج إلى حياة راشد. ولو أن تناول موضوع الشباب بكيفية شمولية، يفترض الأخذ بعين الاعتبار كل مظاهر الحياة الاجتماعية لهذه الفئة من الساكنة (الشغل، التمدرس، الهجرة، الامتثالية والانحراف، السياسة العمومة، الأسرة، الدين، أنشطة الترفيه، الخ)، مع الوعي بأهمية الشغل في حياتهم، باعتباره أحد العتبات الأساسية للولوج إلى حياة راشد⁵⁰، بل هو محور الحياة وعصبتها الأساس، حيث إن العلاقة مع الشغل تفسر تقريبا كل الظواهر التي تمس حياة الشباب. ذلك أنه حتى وإن اتخذ أشكالا ما تفتأ تجدد، يظل الشغل دعامة أساسية في الحياة الاجتماعية للشباب، فهو يظل بمثابة «المدمج الكبير» «le grand intégrateur»⁵¹، لأن المقصي من الشغل، يشعر أنه مقصي من باقي دوائر الحياة الاجتماعية.

إن العلوم الاجتماعية تثبت، من خلال أبحاث ميدانية أن هناك طرقا مختلف ليكون المرء شابا. فهناك شباب بالجمع des jeunesses، أي هناك تفاوتات بين الشباب (تعليمية، وثقافية واقتصادية...) ⁵². كما أن الشباب ليس حالة قائمة الذات ونهائية أو مستقرة وإنما صيرورة دينامية ومتنوعة، تعكس مسارات متنوعة ومعقدة للولوج إلى سن الرشد⁵³:

ولا شك أنه، من أجل معرفة أعمق وأدق لواقع الشباب اليوم، يتعين تجاوز الاحكام المسبقة والاختزالية السائدة حولهم، الأمر الذي يقتضي منا الاقتراب من معيشتهم في تنوع سياقاته، ومعاينة حياتهم اليومية، والانصات إلى لغاتهم الخاصة، وفك شفرات طقوسهم، وفهم نفاذ صبرهم وقلقهم وانتظاراتهم. فواقع الشباب، لا يمكن أن يختزل في شبكات تحليل عامة ومجردة، مهما بدت مغرية⁵⁴، من هنا أهمية دراستنا هذه.

الشباب، بين الانقطاع عن الدراسة وبين العلاقة بالبطالة أو بالعمل الهش

يمكن لنا تقسيم شباب المدينة القديمة الذين شاركوا في البحث من حيث علاقتهم بالشغل والدراسة إلى ثلاث فئات أساسية وهي:

شباب في حالة بطالة ويبحثون عن الشغل.

شباب في حالة بطالة ويبحثون عن الشغل؛ لكن دون التخلي عن حلم متابعة دراستهم.

49 Ibid, pp. 193215-.

50 Ibid, pp. 193215-.

51 صحيح أن الشغل ليس سوى رابطا من الروابط الملموسة التي يقيها الأفراد مع الآخرين ومع المؤسسات الجماعية. إذ هناك أيضا الروابط الأسرية والروابط مع الأصدقاء والأقربان والروابط التي تسج في إطار تنظيمات المجتمع المدني أو السياسي. إلا أن كل تلك الروابط الاجتماعية المختلفة، تستند هي نفسها وتتأثر بطبيعة الرابط الذي يقيمه الفرد مع سوق الشغل ونظام الحماية الاجتماعية... للمزيد أنظر: Dominique Schnapper, Qu'est-ce que l'intégration ? éd Gallimard, Paris, 2007, p 138 -

52 Michel Fize, Le deuxième homme, réflexions sur la jeunesse et l'inégalité entre génération, éd Presse de la Renaissance, Paris, 2002. p118.

53 François Dubet « Des jeunesses et des sociologies. Le cas Français » in Sociologie et sociétés, vol. 28, n° 1, 1996, p. 2335-.

54 Ouvrage collectif, Jeunesses arabes, du Maroc au Yémen : loisirs, cultures et politiques, sous la direction de Laurent Bonnefoy et Myriam Catusse, éd La Découverte, Paris, 2013, p15.

شباب يعملون لكنهم غير راضين عن ظروف شغلهم. إنها الفئة التي تقدم نفسها باعتبارها «تشتغل ولا تشتغل»، أي أن ما تقوم به لا يرقى في نظرها إلى مستوى العمل.

يعبر المبحوثون عن هذه الوضعية بكيفيات مختلفة، لكن تلتقي جميعها في رسم معالم وضعيتهم بوصفها وضعية صعبة التحديد، تجمع بين الشغل وانعدام الشغل، وضعية هجينة ازدادت صعوبة وتعقدا بفعل جائحة كوفيد 19:

فكما ورد على لسان أحد المبحوثين:

«أنا خريج المركز النموذجي للتكوين المسرحي. يمكن أن أقول وأتفق مع الأخت حول أي أشتغل ولا أشتغل، لأن سوق التنشيط التربوي مضطربة بالأخص في هذه الفترة دبال كوفيد 19.»

يؤكد هذا الكلام، ما لاحظته عدد من التقارير حول وضعية الشباب بالمغرب، آخرها تقرير «النموذج التنموي الجديد» الذي أشار إلى أن «الشباب هم الفئة الأكثر عرضة لتبعات أزمة كوفيد19-، لا سيما من حيث صعوبة الولوج إلى سوق الشغل»⁵⁵.

يقول مبحث آخر مؤكدا ما سبق:

«أنا عندي الإجازة في القانون الخاص، والآن أشتغل ولا أشتغل كمربي متخصص في مجال الإعاقه...»

ويضيف مبحث آخر:

«أنا على نفسي لا أستطيع أن أقول أنني شخص يشتغل. لماذا؟ لأن الاشتغال يعني أن يكون هناك انتظام... ما أمارسه يصعب أن نقول عليه عمل بقدر ما هو «تأفآت أو بريكولات» تكون بين الفينة والأخرى سواء مع مدارس خاصة أو مع المخيمات الصيفية بين الفينة والأخرى. بالتالي ليس لدي وضع فار من حيث العمل ومن حيث الدخل.. فما أقوم به لا أستطيع أن أطلق عليه عملا، فهو فقط «بريكولات» وأقل من ذلك بكثير...»

هذا التوصيف للشغل الذي تكرر على لسان أكثر من مبحث راجع إلى طبيعته كشتغل بعيد عن أن يكون كريما ومنصفا: شغل غير قار، ومصدر توتر وقلق وعذاب أكثر مما هو فرصة لإثبات الذات وللشعور بالأمان، وللحصول على مدخول يحفظ الكرامة ويضمن الحقوق.

الانقطاع عن الدراسة وولوج عالم الشغل

على غرار كل شباب العالم، كان للشباب المبحوثين، منذ طفولتهم، مجموعة من الأحلام التي تمنوا في صغرهم بلوغها وتحقيقها حينما يصبحوا كبارا. ولا تخرج تلك الأحلام عن تحقيق غايات الاندماج الاجتماعي والمهني، والارتقاء الاجتماعي، بشكل يتيح لكل واحد منهم إثبات ذاته وتعزيز استقلالته المادية. فلم ممارسة مهن الطب، أو الهندسة، أو المحاماة، أو غيرها، ليس سوى

55 تقرير النموذج التنموي الجديد، تحرير الطاقات واستعادة الثقة لتسريع وثيرة التقدم وتحقيق الرفاه للجميع. التقرير العام، اللجنة الخاصة بالنموذج التنموي. أبريل 2021، ص108.

الحلم بركوب المصعد الاجتماعي الذي تمثله المدرسة للانفلات من الظروف الأسرية التي نشأ فيها.

لكن النمطية التي تميز عادة مثل هذه الأحلام بمهن المستقبل، والتي تنصب أساسا على المهن ذات القيمة الاعتبارية والتي تحظى أكثر بالاعتراف الاجتماعي والتي تحقق مردودية مادية أكبر، لا تنفي مع ذلك وجود مساحات للشغف وللحرية وللميول الإبداعية في عدد من تلك الأحلام، إذ يقول بعض المبحوثين في هذا الصدد:

«كان يستهويني كل ما هو مرتبط بالمعلومات، وأحلم بعد الحصول على البكالوريا أن أأج مدرسة وأتعلم هذا بشكل جيد... على سبيل المثال أن أكون كأمين راغب⁵⁶...»
 «في الصغر كنت أأعب الكرة كثيرا كباقي أبناء المدينة العتيقة وبالتالي كنت أحلم أن أكون لاعبا محترفا، في ناد كبير.»
 «أنا كنت منذ الصغر أحلم أن أكون رساما.»

وعلى الرغم من أن عددا من المبحوثين ما زال يتمسك بحلم الطفولة ومنتشبت بطموح بلوغ المهنة-الحلم، إلا أنهم مدركين تماما بأن الأمر صار صعب التحقيق، لا سيما بعد أن اختاروا مسارات تعليمية مغايرة، أو غادروا الدراسة تماما، في ظل ظروفهم الأسرية الصعبة، التي تحول في الغالب دون تغطية مصاريف ومتطلبات الدراسة، ودون مواكبة ودعم المسار الدراسي للتلميذ أو الطالب.

هذ ما نستشفه مثلا من كلام المبحوثين:

« انقطعت عن الدراسة بسبب ظروفنا المادية، أبي توفي وأنا صغيرة، كانت أمي تشتغل في حمام تقليدي لكنها توقفت بسبب مرضها، الان أشتغل عاملة نظافة مع شركة، أقوم بتنظيف المكاتب ببعض الإدارات بالرباط.»
 «ومن بين الأشياء التي جعلتني أتعثر في الدراسة، غياب التوجيه والمواكبة، والإحساس بالضياع الناجم عن ذلك، والذي عمقته نوعية التكوينات التي نجد أن معظمها مضبعة للوقت.»

وفي هذا الصدد، اعتبر عدد من المبحوثين الحصول على شغل أهم من الحصول على شهادة، فهؤلاء الشباب مستعدين للتخلي عن مواصلة دراساتهم العليا إذا سنحت لهم فرصة للحصول على شغل أو على الأقل المزاوجة بين العمل والدراسة، لا سيما وأن الشهادات العليا بدأت تقعد قيمتها في سوق الشغل، فهي ليست ضمانا للحصول على شغل، خصوصا شهادات المؤسسات الجامعية المفتوحة اللوج، التي يتردد عليها غالبية المبحوثين، المنحدرين من أوساط أسرية محدودة الدخل...

56 مدون ومؤثر مغربي متخصص في المعلومات والثقافة الرقمية.

وتكشف أجوبة المبحوثين بأن إيجاد عمل مناسب، يواجه بجملة من الصعوبات، منها ما يرتبط بغياب فرص شغل كافية لاستيعاب العدد الهائل للخريجين، وما يتعلق بصعوبة الاستجابة للشروط المطلوبة للحصول على عمل (التوفر على تجربة، تسقيف سن الولوج إلى بعض الوظائف والمهن... الخ)، وما يرتبط بتداعيات أزمة كورونا وما أفرزته من تقليص لعدد فرص الشغل، وما يتصل بالزبونية والمحسوبية وغياب الانصاف وتكافؤ الفرص، علاوة على ما يتعلق بمحل السكن في المدينة القديمة نفسه، فقد صرح المشاركون والمشاركات في البحث الميداني بأن السكن في المدينة القديمة يشكل عائقا فعليا في إيجاد العمل والحصول على وظيفة. ويعزى ذلك بالأساس إلى ما تعرفه «المدينة القديمة»، من قلة الأنشطة والخدمات والمؤسسات الكفيلة بتوفير فرص الشغل للشباب، و البعد عن الأحياء والمدن التي تتوفر على فرص حقيقية للشغل لاحتضانها لمناطق صناعية وإدارية وخدماتية... الخ، هذا إضافة طبعا إلى ما يميز به حي المدينة القديمة، على غرار باقي الأحياء الشعبية بسلا (حي سيدي موسى، حي الانبعاث، حي القرية...)، من انتشار لظواهر الجريمة والجنوح والعنف والشعور بغياب الأمن (خصوصا في الليل) والتحرش بالنسبة للإناث، ظواهر تحولت بفعل تكرارها واستمراريتها، إلى علامات وضم للحى وسلاكنته، تؤثر على حظوظ شبابه في إيجاد شغل خارج أسوار حيهم.

وفي هذا الصدد، نلفت الانتباه إلى غياب دراسات علمية ميدانية حول موضوع انتشار ظواهر الجريمة والجنوح والعنف في الأحياء الشعبية لمدينة سلا، ومنها حي «المدينة القديمة»، سواء تلك التي تتناول الظاهرة وتسعى لفهمها وتفسيرها، أو تلك التي تحاول إدراك هذه الظواهر داخل المجتمع، من خلال ما تتسبب فيه من شعور بانعدام الأمن⁵⁷. لكن هذا لا يمنع من الإشارة إلى أن موضوع الشعور بانعدام الأمن الذي كشف عنه المبحوثون والمبחות، والذي نجده لدى ساكنة مدينة سلا عموما، وبشكل خاص لدى ساكنة أحيائها الشعبية، يحضر بقوة في وسائل الإعلام السمعية البصرية والمكتوبة، وفي الإعلام الالكتروني والشبكات الاجتماعية، خصوصا عقب حدوث جرائم مروعة⁵⁸.

فكما ورد على لسان إحدى المبحوثات

«نعم يشكل محل السكن عائقا... فقد استطعت استكمال تكويني في مجال الخياطة بصعوبة بالغة، بفعل التحرش اليومي ومخاطر التعرض للاعتداء والسرقة بالسلاح الأبيض في دروب الحي، حيث يتواجد باستمرار عدد كبير من الشباب المدمنين والمتعاطين للمخدرات وما إلى ذلك... في ظل هذه التهديدات المستمرة، يلزمني من أجل الخروج إلى العمل، الاستعانة بأخي أو أبي أو أي قريب ذكر، لمرافقتي عند الخروج من المنزل إلى مدخل الحي أو في مسار العودة إلى المنزل».

57 Marc Penouil et Gabriel Poulalion, Sociologie de la criminalité, in sociologie pour les sciences sociales, éd l'Harmattan, Paris, 2008, p 234.

58 نورد على سبيل المثال هنا، بعض التغطيات الصحفية للموضوع، والتي تبرز بين المكتوب والصور والسيمي البصري (فيديوهات)، والملاحظ أن كل هذه المتابعات الصحفية تربط بين تفشي سلوكيات الإجرام والعنف والتعاطي للمخدرات وبين بطالة الشباب في الأحياء الشعبية لمدينة سلا:

« تفشي الجريمة يربع سكان مدينة سلا المغربية » جريدة العربي الجديد، 25 سبتمبر 2018 - أنظر : www.alaraby.co.uk
« مسيرة حاشدة تنفض ضد الإجرام بسلا.. والساكنة تشد تدخل الملك » الأحد 23 شتبر 2018 - أنظر : www.hespress.com

والواقع أن بحثنا وطنيا للمجلس الوطني للشباب والمستقبل حول بطلاة الشباب حاملي الشهادات، سبق وأن أبرز في بداية التسعينيات، بأن التوزيع الجغرافي لأصحاب الشهادات المعطلين، يكشف عن نمط آخر من التمييز. فاللامساواة أمام الشغل، تعمق باللامساواة المكانية. فالشباب الذين شهداء، ثم لأنهم يقطنون أحياء ومناطق هامشية.

وكما أكد مبحوث آخر:

«السكن في المدينة القديمة ليس هو السكن في أحياء «أكداال» أو «حي الرياض» في وسط العاصمة الرباط...أنا مثلا كنت أحتاج خلال دراساتي، من أجل التنقل إلى الجامعة إلى ساعة وربع. واليوم ما يزال محل السكن والإقامة يشكل عائقا، بفعل البعد عن الشركات ومختلف أماكن العمل، والبعد عن كل شيء...»

رحلة البحث عن الشغل

بناء على ما سبق، نجد أن الشباب في سعي دائم للحصول على الشغل، نظرا لظروفهم الاجتماعية والاقتصادية الصعبة وظروف أسرهم. وهذا ينطبق حتى على الذين يتابعون دراستهم. فالطلبة المنحدرين من أسر فقيرة أو حتى من أسر متوسطة أحيانا، يعجزون، في ظل عدم تعميم المنحة على كل الطلبة، عن توفير متطلبات الدراسة (تكاليف التنقل، وباقي مستلزمات الدراسة من كتب ودفاتر...الخ)، لهذا يجدون أنفسهم مضطرين للعمل بالموازاة مع دراستهم. لكن محاولات بحثهم عن الشغل، لا تكفل بالنجاح، نظرا لوجود مجموعة من الإكراهات والعوائق التي من بينها:

- أن سوق الشغل يتسم بالزبونية المحسوبة؛

- لا تتوافق سوق الشغل مع ما تم تعلمه وتم التكوين فيه؛

بالرغم من هذا إلا أن الشباب في سعي دائما للحصول على عمل، حتى لو كان خارج المجال الترابي لمدينة سلا؛

بالإضافة إلى ذلك فمعظم الشباب لا ينتظر فرصة للعمل في التخصص الذي تلقى فيه التكوين والدراسة فيه.

فكم يؤكد المستجوبون:

«أغلبية الوظائف التي توفرها الدولة لا تناسب الشواهد الدراسية، أما في القطاع الخاص، فإن أغلبية الأمور التي أقوم بها لا علاقة لها بمجال التكوين الذي تلقينته...، فإننا لا أشتغل في المجال القانوني رغم أن مجال دراستي هو القانون و بالضبط تحليل السياسات العمومية أو النظم السياسية. هذا مجالي ومجال دراستي، ولكن في المجال العملي لا أشتغل في هذه المجالات، وإنما أشتغل في المجال التربوي أو في المجال الفني، الذي سمح لي باكتساب

نزر قليل من الدخل»...

«أريد أن أعمل لكن في نفس الوقت لا يمكن أن أقبل بأي عمل، يجب أن يكون عملا مناسباً، سبق وقمت بتدريب في شركة كان من الممكن أن أعمل بها لكن وجدت ان العمل لا يناسبني، فهو مرهق، العمل يمتد من التاسعة صباحاً إلى التاسعة مساءً. كيف يمكن العيش بهذه الطريقة؟ ليس لدي فكرة مثالية عن العمل، لكن العمل مع الدولة يقيدك، في العمل الخاص تكون لديك الحرية أكثر، ففي الخاص من الممكن أن تغير العمل، وتتعلم أشياء جديدة وتجارب جديدة، بينما في الوظيفة مع الدولة تجد نفسك سنين في نفس العمل.»

يتضح من خلال هذه الأجوبة حدوث تغيير في تمثل بعض العاطلين لوضعيتهم ولانتظاراتهم، من خلال استعدادهم للتشغيل في القطاع الخاص، بل وتفضيلهم أحياناً للشغل الذاتي. ففي البحث الوطني الذي أنجزه المجلس الوطني للشباب والمستقبل في فبراير-مارس 1991، حول بطالة الشباب حاملي الشهادات، اتضح بأن 87% من الشباب أصحاب الشهادات العاطلين كانوا يفضلون العمل بالقطاع العام، أي يفضلون العمل في سلك الوظيفة العمومية، الذي يوفر إلى حد ما عملاً محمياً. وكما أكد الباحث حسن رشيق، فهذا الموقف قد يبدو ظاهرياً محافظاً في مجتمع شكلت الوظيفة العمومية لزمان طويل منفذ التشغيل الآمن الوحيد، غير أنه مبرر، إن لم نقل عقلانياً، إذا أخذنا بعين الاعتبار واقع القطاع الخاص بالمغرب، كقطاع هش وغير مضمون، قياساً إلى العمل في الوظيفة العمومية المحمي والآمن نسبياً⁵⁹.

ولهذا كان «الحق في الشغل» يحيل «كمطلب أساسي لدى أصحاب الشهادات العاطلين، إلى الحق في الشغل في الوظيفة العمومية. فسوق الشغل بالمغرب يتميز بارتفاع نسبة العمل غير المهيكل وبحجم محدود لمناصب الشغل في القطاع الخاص مقابل ضعف استفادة الشغيلة من الحماية الاجتماعية، كل ذلك جعل مطالب العاطلين أصحاب الشهادات يركز على الخروج من وضعية البطالة عبر الإدماج في الوظيفة العمومية، دون أن تتعدى ذلك مثلاً إلى المطالبة بالإدماج في مقاولات القطاع الخاص، أو حتى المطالبة بتحسين شروط وضعهم كعاطلين، عبر تخصيص إعانات اجتماعية⁶⁰....

غير أنه، مع استمرار البطالة، بدأ الشباب في تغيير مواقفهم بالانخراط أكثر فأكثر في مبادرات خاصة أو بالعمل في القطاع الخاص⁶¹...

التأؤم ما بين التعلّمات ومتطلبات سوق الشغل

كان تكوين الشاب يتم تقليدياً داخل الأسرة. عندما كانت المهارات المطلوبة في المجتمع مرتبطة بالأنشطة الفلاحية والرعوية والحرفية وبأنشطة الاقتصاد المنزلي. لكن مع تعميم التعليم، صارت المدرسة مكان اكتساب المعارف والكفايات العامة أو المتخصصة التي ينبغي أن تؤدي

59 HASSAN RACHIK, Jeunesse et changement social, op, cit, pp. 193215-.

60 Frédéric Vairel, Le Mouvement du 20 février : vitalité et limites des protestations marocaines, in Ouvrage Collectif, Soulèvements et recompositions politiques dans le monde arabe, Sous la direction de Michel Camau et Frédéric Vairel, éd Les Presses de l'Université de Montréal, 2014, p283.

61 HASSAN RACHIK, Jeunesse et changement social, op, cit, pp. 193215-.

إلى الشغل⁶². لكن عندما سألنا المبحوثين عن مسألة التلاؤم بين ما يمكن للشباب تلقيه من المدرسة، وبين ما يتطلبه سوق الشغل من مهارات وقدرات، واجهنا الرد الحاسم التالي: «لا علاقة!»، الذي تردد على أكثر من لسان.

والمواقع أن عدم التلاؤم بين التعليم وسوق الشغل، ليس وليد اليوم، ولا حتى نتاج سياسات التقويم الهيكلي في بدايات الثمانينيات، فقد سبق للباحث جون واتريوري أن أشار سنة 1970، إلى أنه لا الحكومة ولا القطاع الخاص يمكنهما لزمان طويل استيعاب أفواج الشباب التي بدأت تشكل «بروليتاريا مثقفة un prolétariat intellectuel»⁶³، مقطوعة الصلة بما يتطلبه سوق الشغل من مؤهلات ومهارات. اليوم، بعد مرور عقود على ذلك التاريخ، ما تزال مسألة بطالة حاملي الشهادات (الحاصلين على البكالوريا أو دبلوم تعليم عال) مطروحة بحدّة. إذ يتبين في هذا الجانب المتعلق بالعلاقة بين ما يتم تلقيه في المدرسة أو الجامعة وبين متطلبات واحتياجات سوق الشغل بأن أغلب الأجوبة تسير في اتجاه تأكيد عدم التلاؤم. فقد كشف المبحوثون عن الهوية المتواصلة بين عالم التكوين والعالم الشغل، وعن النقص الحاصل عندهم في مجال التكوين، خصوصا ما يتعلق بالمهارات اللغوية وتقنيات التعبير والتواصل، والثقافة المقاولاتية، والمهارات المعلوماتية... الخ، الضرورية للولوج إلى سوق الشغل. والمشكل هنا في الواقع مضاعف، إذ لا يقف الأمر عند عدم تدريس ما يتطلبه سوق الشغل من مهارات وقدرات، بل يشمل أيضا تدريس أشياء لا يحتاجها الشاب في المستقبل، لا في العمل أو في المجتمع، بطريقة تقليدية، ونظرية، ولا تعرف أي تحيين وتجديد.

وكما يقول أحد المستجوبين:

«المشكل الذي يقع هو أنك عندما تخرج إلى سوق العمل، فكن على يقين أنه لا بد من البدء من جديد... هذا معروف ومعلوم لدى الجميع... يوم كنت أقوم بالتدريب وإعداد تقرير التخرج، قالوا لنا: أنسوا كل ما درستهم وتعلمتم، وأن ما نحن مقبلون عليه هو تكوين آخر، وهذا هو التكوين الحقيقي».

يؤكد ذلك مستجوب آخر، قائلا:

«ما تلقينه في الجامعة لا نحتاجه... كما أننا ندرس أشياء لا نحتاجها في العمل...»

هذا علاوة طبعا على غياب التوجيه والمواكبة المناسبين لمسار التمدرس، وكذا غياب تكوينات تماشى مع المواهب والميولات التي يمتلكونها منذ الصغر كالرسم والرياضة.

فرغم أن هناك اقرار من قبل المسؤولين وتأكيد من طرف الباحثين، على حجم الجهود المبذولة للنهوض بالنظام التعليمي بالمغرب، والذي جعلت منه نظاما تعليميا جد مكلف، إذ يمثل 23 % من ميزانية الدولة و 5,4 % من الناتج الداخلي الخام⁶⁴، يتميز هذا النظام التعليمي، حسب ما

62 Ibid, pp. 193215-.

63 Waterbury, John, Le commandeur des croyants, La monarchie marocaine et son élite, Paris, Presses Universitaires Françaises, 1975, pp. 345347-.

64 Youssef Courbage et Emmanuel Todd, Révolution culturelle au Maroc : le sens d'une transition démographique, in Fondation Res Publica I vendredi 23 février 2007.

كشفت عنه الاحصائيات الرسمية لوزارة التعليم العالي والبحث العلمي في السنوات الأخيرة، بضعف المردودية:

سواء المردودية الداخلية، إذ بلغ عدد المنقطعين عن الدراسة قبل الحصول على البكالوريا سنة 2019-2020 حوالي 304.545 منقطعاً، كما وصلت نسبة الهدر أو التسرب⁶⁵ deperdition في التعليم الجامعي %47,2 ؛

أو سواء المردودية الخارجية بنسبة بطالة في صفوف خريجي المؤسسات الجامعية ذات الولوج المفتوح (كليات الآداب والحقوق...) تصل إلى 25% ؛

والملاحظ أن عدم استكمال المسار الدراسي أو الجامعي، يدفع الشاب المنقطع عن الدراسة إلى قبول أي عمل دون تمييز، بل الأكثر من ذلك يجعله عرضة لتأنيب الضمير، ولمشاعر الندم والحسرة، فيعتبر نفسه المسؤول عن الوضع الذي هو عليه، كما يظهر من خلال قول المبحوث التالي:

«أرى أن عملي مناسب لأن مستواي الدراسي لا يسمح لي بالعمل في مجال آخر... لو أمكن لي الحصول على البكالوريا لسارت الأمور بشكل أفضل مما هي عليه الآن، وبغض النظر عن العمل كنت سأكون أفضل من الآن... كنت سأنمي عقلي... الآن أشعر بالندم لأنني لم أكمل دراستي...».

تمثلات الشباب للبطالة ولوضعية العشاشة

كشفت أجوبة الشباب والشابات المشاركين في البحث عن تمثلهم للبطالة ولوضعية العشاشة المميزة لهم. فالبطالة بالنسبة لهم هي وضعية ماسة بكرامة الانسان وبحقه الدستوري في الشغل، بل الأكثر من ذلك، هي ضمناً وضعية اقضاء من باقي دوائر الحياة الاجتماعية، على اعتبار أن روابط الفرد الاجتماعية المختلفة، تعتمد بشكل وثيق وتتأثر بطبيعة الرابطة الذي يقيمه الفرد مع سوق الشغل ومع المكانة التي يشغلها فيه. كما أن البطالة في نظرهم «حكرة» بفعل العجز أو القصور الذي يشعر به المرء في مثل هذه الوضعية.

- فكما جاء على لسان بعض المبحوثين:

« أنا لا أرى نفسي عاطلة، فأنا حديثة العهد بهذا الوضع، وسأحتاج للوقت لكي أشعر ربما بضرورة البحث عن عمل. لكن عموماً أرى أن البطالة أمر سلبى، يجعل منك عالية على الاسرة خاصة عندما تكون الاسرة ضعيفة اقتصادياً، وتحتاج إليك لمساعدتها على مواجهة متطلبات الحياة».

«البطالة تمثل لي «حكرة»، عندما أعجز عن توفير ما أدير به أبسط احتياجاتي. وحتى عندما بدأت أعمل كعاملة نظافة، دخلي لا يكفي إلا لأبسط ضروريات الحياة... وشروط عملي قاسية ومهينة...»

65 يقصد بالهدر أو التسرب الجامعي هنا عدم مغادرة الدراسة الجامعية قبل الحصول على أي شهادة.

- Selon l'UNESCO la déperdition scolaire est le fait pour les enfants en âge de scolarité de ne pas aller à l'école et qu'ils la quittent de gré ou de force sans pouvoir achever la phase scolaire qu'ils suivent avec succès

تتعدد طبعا الأوصاف التي تُحدد بها البطالة من طرف المشاركين في البحث، والتي تحاول جميعا أن تمسك بالجانب المظلم في هذه الوضعية «الكابوس»، و«المصيبة»، و«الوحش»، ... إلخ. ويختلف طبعا تمثل المبحوثين للبطالة، تبعا لعدد من المحددات أهمها: طول الفترة التي قضاها الشاب في البطالة، والوضعية السوسيو-اقتصادية للأسرة، والقدرة على الانخراط في أنشطة بديلة مدرة للدخل أو حتى ذات أهمية معنوية بالنسبة للشاب...

إلا أن الملاحظ، أن هناك فئة أخرى من الشباب، وعلى الرغم من أنهم ليسوا عاطلين عن العمل، إلا أن وضعيتهم لا تختلف كثيرا عن وضعية البطالة، بحكم مزاولتهم لأشكال شغل هشة، هي أقرب إلى أشكال البطالة الجزئية منها إلى الشغل بالمعنى الحقيقي للكلمة. يضطر الشاب أحيانا للقبول بهذه الأشكال من البطالة المقنعة من أجل الحصول على دخل مهما كان بسيطاً، يبدو أفضل من لا شيء، أو أحيانا من أجل إثبات الذات وتحقيق قدر من الاستقلالية، فقد كشفت أجوبة بعض المستجوبات عن قبولهن أحيانا العمل بأجور هزيلة وفي شروط غير مقبولة من أجل التحرر من سجن البيت. فالشغل رغم هشاشته يشعرهن بأن لهن وجود، كما يتيح لهن ربط الاتصال بالعالم الخارجي. هذا على الرغم من أن بعض الشباب العاطل يرى في ولوج المرأة إلى سوق الشغل سببا لارتفاع نسبة البطالة في صفوفهم. هذا النمط من التمثل، يبين بأن المرأة، شابة كانت أو راشدة، لا تناضل فقط من أجل الشغل، وإنما أيضا ضد ممارسات ذكورية تمييزية لدى أولئك الذين يقتسمون معها نفس الوضعية⁶⁶...

وأحيانا أخرى يقبل الشباب العاطل بالعمل الهش، لانعدام أي خيار آخر أمامه، كما تؤكد المستجوبة في جوابها التالي:

« لا يمكن أن أتصور نفسي بدون عمل، رغم كل ما أتعرض له من إهانة وقسوة وما أعيشه من معاناة يومية، فأبي متوفى، وأمي مريضة، وكل إخوتي عاطلين عن العمل.... تتطلع جميعا لما أحصل عليه في آخر كل شهر، رغم أنه لا يتجاوز 1300 درهم (أقل من الحد الأدنى للأجر بكثير) ...»

يؤكد ذلك ما ذهبت إليه عدد من الأبحاث، بخصوص تحول نظام الشغل، الذي من أبرز سماته، أن الحدود بين الشغل واللا-شغل(البطالة) صارت متقلبة ومتداخلة وغير واضحة، بفعل انتشار وتزايد أوضاع الشغل الهش، مثل العمل المؤقت، والموسمي، والشغل لدوام جزئي، والتي تُجسّد بشكل ملموس ما يسمى ب «مرونة» سوق الشغل⁶⁷. وكما أبرز أولريش بيك، «مرونة الشغل» التي تقدم ذاتها باعتبارها تعبيراً عن عقلنة نظام الشغل، مست زمن الشغل (من شغل لدوام كامل *à plein temps* إلى شغل لدوام جزئي *à temps partiels*)، وعممت أشكال البطالة الجزئية، كما مست عقد العمل (من عقد غير محدد المدة إلى عقد محدد المدة أو عقد عبر واسطة شركات المناولة *sous-traitance*)، ومست مكان العمل (بترحيل الخدمات وتعويض

66 HASSAN RACHIK, Jeunesse et changement social, op, cit, pp. 193215-.

67 Mme Diane-Gabrielle Tremblay, économiste "Chômage, flexibilité et précarité d'emploi : aspects sociaux". In Ouvrage Collectif, Traité des problèmes sociaux, sous la direction de Fernand Dumont et autres, éd de L'Institut québécois de recherche sur la culture, Montréal, 1994, pp. 623652-.

المقاولة أو المؤسسة المشغلة المرئية الممركزة في مكان ما، بتنظيم لا مرئي للشغل) ⁶⁸...

في ظل هذه الشروط المحددة التي تسم وضعية الشباب والشابات المشاركين في المجموعات البؤرية، لا نتحدث عن هشاشة في ذاتها، بقدر ما نتحدث عن شباب وشابات في وضعية هشاشة. ولعل أهم محدد نستند إليه لتحديد هشاشتهم هو مورد العيش (الشغل وما يوفره من دخل)، في عالم صار قائما على الاستهلاك أساسا. فالشباب والشابات في وضعية هشاشة، يجدون أنفسهم في مواجهة مشكل الولوج إلى الشغل، وتحقيق استقلاليتهم المالية. صحيح أن البعد الاقتصادي للهشاشة له أهمية كبيرة، بالنظر الى أن كل هشاشة اقتصادية لها فرص كبيرة بالفعل لتترجم على شكل صعوبات اجتماعية.

لكن يبقى أن هناك أبعاد أخرى ممكنة للهشاشة، تجعل مبدئيا كل أفراد مجتمع ما عرضة للمرور بمراحل أو فترات معينة من الهشاشة. بحيث نجد أحيانا أشخاصا في وضعية هشاشة رغم توفرهم على امكانات مالية مهمة، كما يمكن أن نجد أشخاصا في وضعية هشاشة بشهادات علمية عليا كما هو الحال هنا.

وهكذا، يمكن اعتبار وضعية الهشاشة التي تسم الشباب والشابات المبحوثين، مثل منطقة اضطراب، بين الاندماج والاقصاء. تستفحل هذه المنطقة وتتفاقم بفعل ضعف الرابط الاجتماعي وتزايد عزلة الفرد وضعف القدرات والمهارات الحياتية. فإذا وجد الشاب نفسه في خضم الفقر والروابط الاجتماعية الضعيفة وفي مواجهة ضيق الأقق، وغموض المستقبل، واتساع دائرة اللامتوقع واللايقين، وعدم القدرة على تجاوز هذه الضغوطات فهو في وضعية هشاشة. من هنا سهولة استهداف مثل هذا الشاب أو الشاب الذي في وضعية هشاشة، بالنظر إلى أنه في وضعية ضعف نسبي: ضعف نفسي، أو جسدي، أو معنوي، أو اجتماعي ⁶⁹، تجعله عرضة للتأثر السلبي بأي خطابات وسهل الاستقطاب لأي تنظيمات أو أنشطة، بما في ذلك تلك المتطرفة والعنيفة وغير القانونية...

وضعية الهشاشة هذه التي تميز شباب وشابات الطبقات الشعبية في الأحياء الهامشية للمدن الكبرى، مثل حي المدينة القديمة بسلا، تدفعهم للانخراط في تجربة يومية خاصة، سبق لفرانسوا ديبي أن سماها «la galère»، تجربة شبابية تتميز بسيادة استراتيجيات بقاء، فيها فترات فراغ طويلة، وتخللها مهن صغيرة، وجنوح ⁷⁰...

68 Ulrich Beck « la société du risque : sur la voie d'une autre modernité » tr de lauré Barnardi éd Flammarion –Coll champs-2001, p 301302.-

69 للمزيد من التوسع، يمكن الرجوع إلى:

Ouvrage collectif, Penser la vulnérabilité : visages de la fragilisation du social, Sous la direction de Vivianne Chatel et Shirley Roy, éd Presses de l'université du Québec, 2008.

70 Dubet François, La Galère : jeunes en survie, Paris, Fayard, 1987.

تأثير البطالة على الصحة النفسية والعلاقات الاجتماعية

لا شك أن البطالة تؤثر سلباً على الشباب العاطل عن العمل، الذي يبحث عن شغل دون نتيجة، فيجد نفسه ينزلق إلى وضعية الهشاشة. ولا يشمل التأثير الجانب المادي فقط المتمثل في انعدام الاستقلالية المالية، بل يعاني الشاب علاوة على ذلك الاقصاء، ويعيش حالة اضطراب في علاقاته مع محيطه المباشر، كما في توازنه النفسي وتميمته الذاتية، كما تتاب الشباب العاطل، بفعل الوضعية الصعبة التي يتواجد فيها، جملة من المشاعر السلبية مثل الاكتئاب والاحباط وفقدان الأمل، التي يكون لها تأثير على صحته، لا يقل عن التأثير المباشر لتدهور الشروط المادية للحياة، حيث تأخذ هذه التأثيرات النفسية ترجمة فيزيولوجية، قد تشمل تدهور الصحة العقلية، وضعف المناعة و تراجع مقاومة الضغوطات، وفقدان النوم، و الارتداء في دوامة التعاطي للتدخين والكحول والمخدرات... إلخ⁷¹.

فكما أشار أحد الشباب المستجوبين:

«صديق لي عاش بطالته كفراغ قاتل، دخل في حالة اكتئاب، فصارت الحياة تبدو له سوداوية، فدخل في عزلة بين أسوار بيتهم، لا يريد أن يرى أحداً ولا أن يسأل عنه أي أحد، فانعكس كل ذلك على صحته، إذ بدأ يعاني من نقص في فيتامين «د»، وضمور حاد في جسده...»

هذا دون أن ننسى تأثير البطالة على المستوى الاجتماعي العام، من خلال ما تسبب فيه من هدر لطاقات العمل وقدرات الانتاج التي يمثلها هؤلاء الشباب العاطل. فبغض النظر عن الفرصة الديموغرافية التي يمثلها الشباب بالمغرب، فإن مؤهلاتهم الإنتاجية لم يتم الاستفادة منها بشكل مرض، ما دامت نسبة البطالة في صفوفهم، تبين بأن هذه الفئة من الساكنة معرضة أكثر من فئة الراشدين للبطالة⁷².

وكما هو معلوم فمثل هذه الوضعية مولدة للصراعات والاحتجاجات الاجتماعية المطالبة بالشغل أو الطامحة إلى تحسين الشروط الصعبة لوضعية البطالة أو بالأحرى التخفيف منها (منح تعويضات مالية...)⁷³.

لكن في ما وراء التأثير المالي (انعدام الدخل وانعدام الاستقلالية المالية)، تستهدف وضعية البطالة بشكل عميق الحياة الاجتماعية والنفسية للشباب العاطل، حيث تقضي هذه التجربة إلى تفكك روابطه الاجتماعية، وتغيير علاقته بالزمن، وتدفعه دفعا إلى الانكفاء على الذات، وإلى نوع من اللامبالاة الطوعية والعميقة تجاه ما يجري حوله⁷⁴. فيحس الشاب العاطل بأنه مقصي وأشبه بكائن منبوذ داخل المجتمع، وأنه عبء أو عالة على الأسرة والمجتمع، فيختار بشكل

71 Jérôme Gautié, Le chômage, éd La Découverte, Paris, 2015. P.4.7

72 حيث نجد مثلاً أن 18,6% بالنسبة للبالغين ما بين 15 و24 و13,2% بالنسبة للبالغين ما بين 25 و34 حسب إحصائيات 2012. انظر: فوزي بوخريص، العمل غير المهيكل بالمغرب، ضمن راصد الحقوق الاقتصادية والاجتماعية في البلدان العربية، العمل غير المهيكل، منشورات شبكة المنظمات العربية غير الحكومية للتنمية، بيروت، 2016، ص436-470.

73 Jérôme Gautié, Le chômage, éd La Découverte, Paris, 2015.p46.

74 Ibid, p 46.

طوعي الانزواء والابتعاد عن الأصدقاء وعن الناس، حفاظا على صورته من نظرات الغير، التي هي مزيج من الشفقة والتعاطف أو من تحميل المسؤولية والاتهام بالعجز أو الفشل.

في البطالة فقدان لوضع اجتماعي واعتباري معين، وإقصاء تعسفي من المشاركة في سيرورة الانتاج، فهي فعل حاط من قيمة الشخص، خصوصا ونحن نعيش في مجتمع، حيث تعتبر ممارسة عمل مؤدى عنه الشكل الأساسي للاعتراف بفائدة الشخص، وبوجوده الاجتماعي، وتعتبر أساس تنظيم حياة الانسان وأزمنته: زمن الشغل كما أمانة خارج الشغل (زمن الترفيه، الزمن المخصص للأسرة، زمن التكوين...). وتجدر الاشارة إلى أن البطالة لا يعيشها الشباب العاطل كوقت حر، وإنما كوقت فارغ، مع ما ينجم عنه من ملل، وقلق، وشعور بالذنب...⁷⁵.

وتمتد التأثيرات السلبية للبطالة إلى العلاقات الأسرية. فاحتمال أن تكون الأسرة فقيرة بفعل البطالة كبير، يقدره بعض الباحثين ب 3,5 مرة أكثر مما يميز الأسرة التي لا يعاني فيها أي عضو من البطالة⁷⁶. ولو أنه لا يمكن التعميم، إذ يمكن لتجربة البطالة أن تكون مناسبة لتعزيز التضامن ولتقوية العلاقات الأسرية. فقد كشفت أجوبة الشباب والشابات في المجموعات البؤرية والمقابلات الفردية، عن استمرار علاقتهم بأسرهم، واستمرار عيشهم في كنف الأسرة. وإن كان الواحد منهم لا يخفي رغبته في تحقيق الاستقلال عن أسرته، في إطار سكن خاص، مهما كان بسيطاً، والاعتماد على الذات في مواجهة الحياة. لكن صعوبة الوضع الأسري للشباب العاطل، تحول دون تحقيق الاستقلال الذاتي عن الأسرة، إذ ما يزال يحتاج لدعم الأسرة. وحتى عندما يجد هذا الشاب عملاً، فإنه يشعر غالباً بأنه مجبر على البقاء مع الأسرة، من أجل مساعدتها، وتحمل قسط من أعباء الحياة، عبر مساندة الآباء أو الإخوة الصغار المحتاجين للدعم والموازة.

وكشفت المعطيات الميدانية على أنه يمكن التمييز في علاقة الشباب العاطل بأسرهم بين فئتين:

فئة من الشباب تنتمي إلى أسر فقيرة تتسم وضعيتها بالهشاشة، في الكثير من هذه الأسر نجد أكثر من عاطل. يضطر هؤلاء الشباب، بفعل هشاشة وضعهم، إلى الانقطاع عن الدراسة وبدأ رحلة البحث عن عمل لتحمل مسؤولية أسرهم. مثل هؤلاء لشباب، قد يقبلون بأي شغل مها كان، شاقاً أو غير لائق. هذا ما يمكن أن نستشفه مثلاً، من الجوابين التاليين:

« أبي دائماً يسألني هل أبحث عن عمل...هناك ضغط من جانبه. هذا الامر يزعجني... البطالة بالنسبة لي لا تؤثر لكن يبقى المشكل في افراد العائلة عندما يشفقون علي. »
 «أنا منذ البكالوريا وأنا أفكر في مسألة الاستقلال على الأسرة.. ما يدفعني إلى عدم الاستقلال حالياً هو أنني الأخ الأكبر للأسرة ويلزمي أن أقدم كل الدعم لأسرتي.. لكن عندما تحين الفرصة وتتوفر الإمكانيات، سيحين موعد الاستقلالية بلا أشك، عندها سأفكر في كيفية تديير مستقبلي الشخصي من خلال الزواج وتديير مستقبل أسرتي.. »

75 Ibid, p 45.

76 Ibid, p4 6.

ثم هناك فئة من الشباب تنتمي إلى أسر وضعها المادي متوسط. مثل هذه الأسر، قد لا تمارس أي ضغط على أبنائها، بل العكس يمكنها دعمهم في حدود امكانياتها، ومساندهم في رحلة بحثهم عن شغل. في هذا الصدد يقول أحد المبحوثين:

«بفضل دعم أسرتي، أبحث عن عمل، لكن دون أن أكون مضطرا لقبول أي عمل مهما كان، لا بد من عمل يناسب ذكويتي...»

هذه الوضعية وغيرها كثير، تؤكد ما سبق أن أبرزته أبحاث أخرى حول الشباب: كون الاسرة تستمر في احتلال مكانة محورية لدى هذه الفئة الشابة من الساكنة. انها بالنسبة لها حصن وحصن آمن ضد الازمات المادية⁷⁷، ويبقى دورها الأهم في التخفيف من الصعوبات المتزايدة التي تحول دون ادماج الشباب، مهنيا واجتماعيا⁷⁸. كما تؤكد هذه الوضعية نزوع الشباب العاطل في الغالب للسكن مع أسرهم، طبعاً مع اضعاف نوع من النسبية على هذه الملاحظة، تبعاً لجنس الشاب ووضعيته السوسيو-اقتصادية ورأسماله الثقافي⁷⁹..

وفيما وراء الدائرة الأسرية، تمتد التأثيرات السلبية للبطالة إلى مجموع العلاقات الاجتماعية. لأن الكثير من هذه العلاقات تبنى انطلاقاً من الشغل، وبالتالي ستضطرب بسرعة، باستثناء إذا استندت إلى تجربة تضامنية أسرية.

يمكن أن نستشف ذلك من خلال الجوابين التاليين:

«الوضع صعب جداً. مثلاً يصعب عليك شراء ما تحتاجه من مستلزمات... فتضطر للتهرب من الأصدقاء»

«عندما لا أجد عملاً، لا يكون لدي المال للخروج والالتقاء بأصدقائي، هذا يؤثر حتى على علاقتي بصديقتي، لم أعد أستطيع دعوتها للخروج...الأفضل أن أبقى في البيت، العطالة تؤثر على علاقتي العاطفية».

وهكذا، يميل الشاب العاطل إلى قطع طوعي لعلاقاته الاجتماعية أو إلى التقليل منها. وقد تتجاوز القطيعة مستوى العلاقات الاجتماعية بين فردية، لتطال كل أشكال المشاركة في الحياة الاجتماعية، بما في ذلك المشاركة المدنية والسياسية كما سنرى لاحقاً⁸⁰.

هذا علاوة طبعاً على التداعيات الاقتصادية السلبية للبطالة، المرتبطة بالصعوبات المالية التي يواجهها الشاب العاطل، خصوصاً بفعل طول مدة البطالة وفي ظل ضعف أو غياب التضامن والدعم الأسريين، أو المؤسساتيين (نظام التعويض عن البطالة).⁸¹

77 R. Bourqia et autres, Les jeunes et les valeurs religieuses, éd Eddif-Codesria, Casablanca, 2000.p12.

78 Olivier Galland, Les jeunes, éd La Découverte, Paris, 1987. p .87

79 Ibid. p 88.

80 Jérôme Gautié, Le chômage, op, cit. p.46.

81 Ibid.p46.

الشباب في وضعية هشاشة و استراتيجيات ضمان البقاء stratégies de survie

تكشف أجوبة المستجوبين من الشباب والشابات العاطلين عن تنوع كبير على مستوى الاستراتيجيات التي يعتمدونها من أجل مقاومة مختلف التأثيرات السلبية للبطالة، وعلى مستوى الأنشطة البديلة، الكفيلة بضمان البقاء⁸²....

يتعاطى الشباب لأنشطة عديدة للتخفيف من تداعيات البطالة. تختلف هذه الأنشطة حسب ميولات واهتمامات الشباب وحسب جنسهم أحيانا. من هذه الأنشطة نذكر: مزاوله الرياضة، الانخراط في الأنشطة الجموعية، وممارسة بعض الانشطة الفنية (المسرح والموسيقى...)... كما نجد أنشطة، تندرج ضمن إطار الممارسات اليومية الروتينية، مثل النوم لساعات طويلة والتجوال أو بالأحرى التسكع بجانب البحر...

مثلما نلاحظ في أجوبة بعض المستجوبين بخصوص الأنشطة البديلة، الإحالة على بعض السلوكات المحفوفة بالمخاطر لشباب يسقط في شرك الإدمان على المخدرات (القرقوبي، الحشيش، المعجون...) والكحول. فكما ورد على لسان أحد المستجوبين:

«صراحة في بعض الفترات، استعملت كل أنواع المخدرات (القرقوبي، الحشيش، المعجون). بدأت أولا بمراقبة المدمنين، ثم انتقلت بعد ذلك للتجريب في إطار التحدي مع الأصدقاء... لكن سرعان ما تحول التجريب إلى إدمان. والآن لم أعد أتناول أي مخدر، بفضل صرامة أمي، التي هددتني بالطرد من البيت، وخيرتني بين رضاها وحمايتها وبين الإدمان...».

ويقول مستجوب آخر، للتعبير عن استثناء ظاهرة الإدمان بين شباب المدينة العتيقة، ما يلي:

«عدم الشغل في المدينة القديمة يعني التعاطي للمخدرات، فكما يردد الأصدقاء، فإن المخدرات أكثر من الخبز في المدينة القديمة».

لكن، كل ما سبق لا ينفي حقيقة ان بعض المستجوبين، يعيش وضعية بطالته بشكل طبيعي، بل يحاول ألا يستسلم لها، بالبحث عن بدائل. وفي هذا الإطار يمثل الانترنت والعالم الرقمي عموما فرصة بالنسبة للشباب. خصوصا وأن الشباب يمارسون أكثر من غيرهم أنشطة لها علاقة بالتكنولوجيات الجديدة، خصوصا «الأجيال التي نشأت مع الانترنت» ('Internet natives')⁸³.

فقد أثبتت العديد من الأبحاث بأن الشباب اليوم أكثر كفاءة في مجال وسائط الاعلام والاتصال من آبائهم ومن أساتذتهم، وأن الشباب، غالبا ما يتعلم الكفايات المرتبطة بالمجال الرقمي ذاتيا أو من أقرانهم، وليس في المدرسة أو الأسرة.⁸⁴

82 Ibidm

83 Christophe Stener, jeune, in Ouvrage Collectif, Dictionnaire politique d'Internet et du numérique, Les 66 enjeux de la société numérique, coordonné par Christopher Stener, éd La Tribune, 2010. P.P.69- 70.

84 Gilles Pronovost, L'univers du temps libre et des valeurs chez les jeunes, éd Presses de l'université du Québec, 2007.

فكما ورد على لسان أحد المستجوبين

« انخرطت في قراءة وتعلم الكثير من الأشياء على الأترنيت، لجني المال، أشياء تتعلق e-commerce، التصميم Design ... ما يهم هو إيجاد بدائل انطلاقا مما هو متاح».

ولا شك أن الثورة الرقمية يمكنها إتاحة الفرصة للشباب عموما للتحرر الشخصي والمهني، وإن كانت استنادا لأجوبة المبحوثين وبالقياس إلى وضعيتهم السوسيو-اقتصادية، محدودة جدا، إذ لا يمكنها أن تعوض استراتيجيات التشغيل العمومية الحقيقية...

وفي نفس المنحى، يقول مستجوب آخر:

« أقوم بالأشياء التي لم أكن أستطيع القيام بها خلال دراستي، أحاول تعلم لغة جديدة (الاسبانية)، وأمارس الرياضة... خلال سنوات الدراسة لم يكن لدي الوقت، الآن لا شيء لدي سوى الوقت الفارغ...»

ويبقى المجال الأبرز الذي يشكل بديلا بالنسبة للشباب لإيجاد شغل، هو أنشطة العمل غير المهيكل، حيث يتعاطى شباب المدينة القديمة للتجارة غير المهيكلة، فيشتغلون كباعة متجولين على أرصفة المدينة، كما يشتغلون كندل في المقاهي، وفي إصلاح الهواتف النقالة، وفي وشم الأجساد... الخ. وتشمل أنشطة القطاع غير المهيكل بالمغرب، التي تستقطب نسبة كبيرة من شباب المدينة القديمة من العاطلين، أنشطة ضمان لقمة العيش، العاجزة عن تحقيق فائض والتي تدهر في فترات الأزمة الاقتصادية، والتي ينتشر فيها نمط الشغل غير المحمي l'emploi non protégé، والتي علاوة على ما تتسبب فيه للشباب العاطل من استغلال وشفاء وإذلال، لا توفر سوى مداخيل محدودة، لا تتجاوز بتاتا مستوى ضمان الحد الأدنى للقمة العيش⁸⁵ ...

فكما ورد على لسان بعض المستجوبين:

«بتعاملون معي كي الزفت»
«كندعي الله إغفو عليا من هذا الخدمة»...

الواقع أننا هنا أمام صرخات استنكار ضد إرادة موضوعية إقتصادية تسعى للإبقاء على الشباب العاطل في حالة قصور... بشكل يتعارض مع طموح الشباب الطبيعي لكي يصيروا راشدين وسادة مصيرهم، ويتناقض مع تطلعاتهم إلى كسب لقمة عيشهم عبر شغل كريم ومنصف ومرض، ومحرف، ونظيف⁸⁶.

ومن بين الخيارات الأخرى التي يتطلع إليها شباب المدينة القديمة، خيار الهجرة، سواء تعلق الأمر بالهجرة السرية («الحريك») بوسائل عصرية أو بدائية، انطلاقا من شواطئ مدينة سلا في الكثير من الأحيان (ومنها شاطئ المدينة العتيقة)، أو تعلق الأمر في بعض الحالات القليلة

85 فوزي بوخرىص، العمل غير المهيكل بالمغرب، ضمن راصد الحقوق الاقتصادية والاجتماعية في البلدان العربية، العمل غير المهيكل، منشورات شبكة المنظمات العربية غير الحكومية للتنمية، بيروت، 2016، ص436-470.

86 Michel Fize, Le deuxième homme, réflexions sur la jeunesse et l'inégalité entre génération, éd Presse de la Renaissance, Paris, 2002, p152.

بالهجرة النظامية عن طريق عقد عمل أو في إطار التجمع العائلي أو عبر «زواج أبيض»...

ومن أجل إدراك ما يمثله حلم الهجرة بالنسبة للشباب العاطل، ينبغي استحضار معطى أن أعداد المغاربة المهاجرين إلى الخارج عرف تطورا مهما خلال العقود الأخيرة، ليلبلغ حاليا أكثر من 5 ملايين شخص، وأن هذه الساكنة المهاجرة تتسم بغلبة عنصر الشباب. فقياسا إلى الوضعية السوسيو-اقتصادية لهؤلاء المهاجرين المغاربة بالخارج، خصوصا بأوروبا الغربية، يمكن اعتبار الهجرة السرية (أو الحريك) إلى الضفة الأخرى، شمالا عبر البحر الأبيض المتوسط أو غربا عبر المحيط الأطلسي، خيارا مطروحا بالنسبة لكل شاب عاطل، في المدينة القديمة كما في باقي مناطق المغرب الأخرى، إنها حلم يراود، جزءا هاما من الشباب يدير ظهره للوطن، ولا ينظر، ولا ينتظر الأمل إلا خارج الوطن.⁸⁷ فقد كشفت عدد من البحوث بأن الرغبة في الهجرة «بأي ثمن» و«بأية كيفية»، تمثل واقعا لا يمكن تجاهله لدى الشباب المغاربة، حيث صارت جزء من معيشتهم⁸⁸. صحيح يصعب قياس ظاهرة «الحريك» (الهجرة غير الشرعية)، بسبب طبيعتها نفسها، التي تحيل على ما ينفلت من القانون، أي على ما هو سري وغير مرئي أو غير شرعي. لكن المكتب العالمي للشغل يتحدث، في نوع من التقدير، عن كونها تمثل حوالي 15 في المائة من حجم الهجرة الشرعية. وحسب تقديرات وزارة الداخلية بالمغرب، شهدت سنة 2013 على سبيل المثال، تفكيك 63 شبكة للهجرة غير الشرعية وإفشال 19,500 محاولة تسلل إلى أوروبا. لكن هذه الأرقام، تظل جزئية وغير دقيقة، وبعيدة عن حقيقة الواقع. وعلى العموم تجمع المصادر الرسمية وغير الرسمية على حقيقة «الهجرة غير الشرعية» بالمغرب كظاهرة جماهيرية...de masse⁸⁹

والمؤكد أن غياب الشغل المنصف والكريم والمتوافق مع مؤهلات الشاب، هو دافع رئيسي للتفكير في الهجرة⁹⁰. وبالتالي فهذا الميل القوي، والاستعداد التام للهجرة الملاحظين لدى غالبية الشباب، في حالتنا هذه، يترجمان شعورهم بالإحباط⁹¹...

وتجدر الإشارة أيضا، إلى أن أجوبة المستجوبين، ما تفتأ تستحضر واقع الفساد والرشوة والزيونية في خضم تناولها لوضعية البطالة والهشاشة التي تعرفها، هذا الأمر لا يختلف كثيرا عما لاحظته باحثون آخرون سابقا⁹²، حيث يتم التأكيد باستمرار على مشكل الوساطة والزيونية والرشوة، وشبكة المعارف للحصول على شغل⁹³. ربما هذا ما دفع المجلس الاقتصادي والاجتماعي والبيئي في تقريره حول «تشغيل الشباب»، إلى الدعوة في سياق تقديمه للمقترحات الكفيلة بالنهوض

87 محمد جوسوس، الشباب وتحولات المجتمع المغربي، ضمن مؤلف، طروحات حول المسألة الاجتماعية، منشورات الأبحاث المغربية، سلسلة كتاب الشهر عدد 6، 2003، ص71-72.

88 Stefano Volpicelli et autres, L'attitude des jeunes au Maroc à L'égard de la migration, Rapport de recherche, éd L'Organisation internationale pour les migrations (OIM), 2010.

89 فوزي بوخرص، الهجرة غير الشرعية بالمغرب وإشكالية الاندماج الاجتماعي: هجرة القاصرين من دون مراقبة نموذجًا، ضمن مجلة «سياسات الهجرة»، العدد الأول، يناير 2016، ص37-59.

90 Youssef Courbage et Emmanuel Todd, Révolution culturelle au Maroc : le sens d'une transition démographique, in Fondation Res Publica l Vendredi 23 Février 2007.

91 HASSAN RACHIK, Jeunesse et changement social, op, cit, pp. 193215-

92 Paul Pascon et autres, ce que disent 296 jeunes ruraux, in Bulletin Economique et Social du Maroc, N 1121969, 113-, p1.144-

93 HASSAN RACHIK, Jeunesse et changement social, op, cit, pp. 193.215-

بتشغيل الشباب، إلى احترام قواعد الشفافية والعدالة والانصاف في التشغيل⁹⁴...

وإجمالاً، يقاوم الشباب العاطل، ويخطط لاستراتيجيات ضمان البقاء stratégies de survie ولمشاريعه البديلة وينخرط فيها بشكل أفضل، كلما كان له مستوى تكوين وتأهيل عال، وكلما توفر على نسيج علاقات أسرية واجتماعية مكثف، يمكن أن يجد فيه آليات للدعم والمؤازرة والتضامن. لكن على العكس، تكون الصدمة قوية، بقدر ما تكون الوضعية السابقة مستقرة... فشباب في بحث عن سبل الإدماج المهني لن يتأثروا في بداياتهم بقدر تأثر راشدين خلفهم تجربة مهنية طويلة⁹⁵.

السياسات العمومية في مجال التشغيل: الحلول المؤسسية التي توفرها الدولة من وجهة نظر المشاركين.

إذا كان الاهتمام بالشباب، وخاصة قضايا تشغيله، بدأ يفرض ذاته بالمغرب منذ ثمانينيات القرن الماضي، عقب ما خلفته سياسة التقويم الهيكلي من تداعيات. فالملاحظ بالمقابل أن هذا الاهتمام، لم يصل إلى حد بلورة سياسة عمومية فعلية موجهة للشباب ولحل المشكلات التي يعيشها، وعلى رأسها مشكلة التشغيل. لكن مع بدايات التسعينيات، بدأت تطرح مسألة بطالة حاملي الشهادات ضمن الأجندة السياسية⁹⁶، من خلال اعتماد عدد من التدابير، لعل أبرزها اعلان الملك الحسن الثاني عن إنشاء المجلس الوطني للشباب والمستقبل في 20 فبراير 1991⁹⁷. غير أنه مع نهاية التسعينيات فقط بدأ التفكير في وضع أسس سياسة عمومية حول الشباب. ففي التصريح السياسي لحكومة التناوب الأولى، تم التعبير عن طموح تحسين شروط الحياة اليومية للشباب، ومحاربة كل أسباب تهميشها، ووضع استراتيجية تأطير سوسيوثقافي، وتطوير ثقافة جديدة وتحرير طاقات الشباب في كل المجالات إلخ... ومع بدايات سنوات الألفية الثالثة، بدأت ترسم بوادر سياسة موجهة للشباب، وشيئا فشيئا اخذ موضوع «السياسات العمومية» يتحول إلى موضوع حوار عمومي واسع، خصوصا بعد تداعيات الحراك الاجتماعي العربي، ونسخته المغربية (حركة 20 فبراير). يظهر ذلك بوضوح من خلال انشغال عدد مهم من الأحزاب السياسية والنقابات والجمعيات المدنية، بتضمين المذكرات الموجهة إلى اللجنة الاستشارية المكلفة بمراجعة الدستور، لمطالب تهم السياسات العمومية إن على مستوى التقييم أو المشاركة أو التنفيذ..

وفي ذات الاتجاه، أعلنت وزارة الشباب والرياضة سنة 2014 عن ما أسمته «الاستراتيجية الوطنية المندمجة للشباب 2015-2030»، هادفة من وراء ذلك وضع الشباب في صلب السياسات العمومية. وتستهدف هذه الاستراتيجية، كما هو منصوص عليه في متنها، تجاوز الرؤية القطاعية السائدة على مستوى سياسات الشباب، ووضع وثيقة مرجعية موجهة ومنسقة للسياسات العمومية

94 تقرير المجلس الاقتصادي والاجتماعي والبيئي، تشغيل الشباب، 2011 (أنظر موقع المجلس: www.ces.ma)

95 Jérôme Gautié, Le chômage, op, cit, p 47.

96 صاغ الباحث جون غوستاف بادبولو Jean-Gustave Padioueau مفهوم الاجندة السياسية، وهي تتضمن مجموع المشاكل المدركة باعتبارها تتطلب نقاشا عموما سياسيا، بل وتدخل للسلطات العمومية.

المزيد، أنظر: Pierre Muller, Les politiques publiques, éd PUF, coll Que Sais-je? 10e édition, 2013.

97 HASSAN RACHIK, Jeunesse et changement social, op, cit, pp. 193215-.

ولتدخلات وجهود باقي الفاعلين في حقل السياسة المندمجة للشباب، خصوصا بعد الدستور الجديد، الذي عزز الإطار القانوني والمؤسساتي للشباب. فكما هو معلوم أكد دستور 2011 على ضرورة:

توسيع وتعميم مشاركة الشباب في التنمية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية للبلاد، ولا سيما بإحداث مجلس استشاري للشباب والعمل الجمعي؛

مساعدة الشباب على الاندماج في سوق العمل وفي الحياة الجمعية، وتقديم المساعدة للشباب الذين في وضعية صعبة، وضعية تحول دون تكييفهم المدرسي أو الاجتماعي أو المهني؛ تيسير ولوج الشباب للثقافة والعلم والتكنولوجيا والفن والرياضة والأنشطة الترفيهية؛

وكذا توفير الظروف الملائمة لتفتق طاقاتهم الخلاقة وقدراتهم الإبداعية في كل هذه المجالات... الخ.

لكن على مستوى الواقع، ما تزال الاستراتيجية الوطنية المندمجة للشباب 2015-2030 إلى اليوم تنتظر الاعتماد النهائي والتفعيل والتنفيذ. ولعله عبر رصد آراء المستجوبين في المجموعات البؤرية حول مختلف المبادرات والإجراءات التي تتخذها الجهات المؤسساتية المسؤولة عن سياسة التشغيل، لفائدة شباب المدينة القديمة، يمكن التحقق من واقع حال هذه المبادرات والإجراءات.

وكما هو معلوم فسياسات التشغيل تتضمن نظريا مجموعة من التدابير، التي يمكن أن تصنف إلى فئتين: إحداهما تسمى فعالة أو إيجابية والأخرى تعتبر «سلبية»⁹⁸.

فالتدابير الفعالة تضم مجموع الإجراءات الهادفة إلى تشجيع ولوج العاطلين إلى الشغل، والتي تتكون أساسا من إجراءات الماكنة والمساعدة على البحث عن شغل التي تشرف عليه مؤسسات تُحَدِّثُ لهذا الغرض. ومن إجراءات المساعدة على الشغل بالمعنى الواسع للكلمة، مساعدة العاطلين على خلق المقاولات، وإحداث مناصب الشغل المدعومة في القطاع الخاص أو العمومي، وتستهدف هذه الإجراءات الأخيرة العاطلين الذين يعانون من صعوبات أكثر في سوق الشغل، والذين يتم تحديدهم اعتمادا على معايير (السن، الإعاقة، مدة البطالة...)، وهناك أخيرا إجراءات التكوين والتأهيل وتعزيز القدرات⁹⁹.

أما التدابير المسماة «سلبية» أو تسمى أيضا إجراءات دعم الدخل، فتستهدف تأمين حد أدنى من الدخل للأشخاص الذين بدون شغل. إنها تشمل على سبيل المثال تقديم تعويضات عن البطالة.

وبخصوص الحلول والإجراءات المؤسساتية التي اعتمدها الدولة بالمغرب من أجل تشجيع أو تيسير الحصول على شغل، مثل برنامج دعم التشغيل الذاتي أو برنامج دعم الشغل المؤدى عنه «إدماج» أو برنامج خلق المقاولات الصغرى «مقاولتي» أو برنامج القروض الصغرى، أو برنامج «انطلاق» أو برنامج «فرصة»، أو برنامج التلاؤم ما بين الشغل والتكوين «تأهيل» أو برنامج

98 من اجل معرفة المزيد حول هذا التصنيف ذي الطبيعة الإجرائية والاتفاقية، يمكن الرجوع إلى: Jérôme Gautié, Le chômage, éd La - Découverte, Paris, 2015, p 92.

99 Jérôme Gautié, Le chômage, op. cit. p 92.

«مدن المهن والكفاءات» أو برنامج «أوراش» المعلن عنه مؤخرا من طرف الحكومة الحالية، فقد اجمعت وجهات نظر المستجوبين على جملة من الملاحظات، من أبرزها:

مشكل «الاستغلال» الذي ينجم عن التشغيل في مثل هذه البرامج المؤسسية سواء على مستوى الأجر أو عدم توافق العروض المقترحة مع المستوى التعليمي خصوصا بالنسبة لذوي الشهادات العليا (إجازة، ماستر، دكتوراه)؛

عدم استيعاب البرامج المؤسسية لكافة الفئات التي تواجه وضعية البطالة، فهي موجهة بالدرجة الأولى لذوي الشهادات العليا؛

ضعف المواكبة والمصاحبة المؤسسية والقانونية اللازمة والمشجعة على خلق مقاولات خاصة وإنشائها؛

سيادة علاقات الزبونية والفساد و«الوجهيات» وغياب مبادئ الشفافية وتكافؤ الفرص والمساواة والانصاف؛

الهوة بين عالمي التكوين والشغل، تجعل التكوين الذي يستفيد منه الشاب في الجامعة أو في مؤسسات التكوين المهني، منفصلا عن حاجات سوق الشغل،

عدم تنويع مسارات التكوين وتجديدها، وعدم تعزيز مضامينها، بحيث تنصب على الكفايات اللغوية والحياتية والنهوض بمعرفة أمثل بالحياة الاقتصادية والثقافة المقاولاتية، من أجل تسهيل إدماج الشباب في عالم الشغل، كما يقترح مثلا تقرير للمجلس الاقتصادي والاجتماعي والبيئي حول «تشغيل الشباب»¹⁰⁰.

عدم توفير قطاعات لتدريب الخريجين وتأهيلهم وتعزيز قدراتهم، في أفق إدماجهم...

النتائج الكمية لهذه البرامج والإجراءات المؤسسية، تظل أدنى من أن تستجيب لواقع بطالة الشباب، ففئة محدودة فقط من الشباب العاطل تستفيد فعلا من هذه البرامج والإجراءات...

فكما ورد على لسان أحد الشباب المستجوبين:

«لقد اقترحوا «انطلاقة»، ثم «فرصة»، وهناك حديث اليوم عن «أوراش»... هذا جيد، ولكن أنا أرى من خلال تجارب بعض الأصدقاء الذين استفادوا من برنامج «انطلاقة» أنهم أفلسوا ومنهم من هو في حالة متابعة قانونية... فأنا مثلا لن أغامر للدخول في هذا الغمار المليء بالألغام...»

وفعلا يمكن اعتبار برنامج مثل برنامج القروض الصغرى من الناحية النظرية، وسيلة تتيح للشباب العاطل خلق مقاولاتهم ومناصب شغلهم الخاصة، في أفق الرفع من مستوى عيشهم. وفي هذا الصدد يعد المغرب من بين البلدان التي وظفت كثيرا آلية منح القروض الصغرى وتشجيع مؤسسات القروض الصغرى. إذ، انطلقت أولى البرامج في هذا الصدد (القروض الصغرى) في سنتي 1993-1994. ويتوفر المغرب حاليا على حوالي 50% من حجم القروض الصغرى في

100 تقرير المجلس الاقتصادي والاجتماعي والبيئي، تشغيل الشباب، 2011، ص17.
أنظر التقرير على موقع المجلس: www.ces.ma

كل منطقة «مفنا» MENA، كما فضم إلى حدود فونفو 2013، 11 جمفففة من جمفففات القروض الصغرى القانونفة، لها حوالي 820 ألف زفون. وتسعى الاستراتيجية الوطنية للقروض الصغرى ففه إلى تحقفق هدف بلوغ 3 ملايين و200 ألف زفون فف أفق 2020¹⁰¹. لكن رغم هذا الرهان الرسمي على آفة القروض الصغرى، إلا أن الملاحظة المتأففة للواقع تبرز بأن القروض الصغرى لا ففف للمستففدفن تطوير أنشطفة اقطفادفة حقففة لتحسفن شروط عفشهم ووضعم الاجتماعي. فالقروض الصغرى كأداة لها محدودففها، ثم إنها تندرج ضمن خطاب محاربة الفقر وفق مقارنة نفولفبرالفة، كما فدخل ضمن الدور الجدفد للدولة الفف ففخلى ففه شففا فشففا عن بعض وظائفها، فف يفترض أن تعوض القروض الصغرى فدخل الدولة والمؤسسات البنكفة. وففق أنه حتى وإن كان نظام التمويل عبر القروض الصغرى دور فف مساعدة عدد من الشباب العاطل، على فجاوز وضفة الهاشاشة والاقصاء، فإن له نتائج غير منظرفة، منها أنه أدى إلى سقوط المستففدفن فف برائن الاستدانة المفرطفة، وإلى الاستدانة من مؤسفة لتسدفد قرض مؤسفة أخرى (فأكثر من 40% من الزفنا لهم قروض من عدة مؤسسات)، ثم إن معدلات الفائفة ففه مرتفعة. كما أن محدودفة المبالغ المقدمة فف إطار هذا البرنامج، لا فمكن أن تسمح بخلق مشاريع شغل حقففة ومستدفمة¹⁰²...

وكما هو معلوم فتطلق السفاسات الاقطفادفة النفولفبرالفة المتبعة فف المغرب، كما فف العفد من البلدان العربفة، من نقد النموذج الفنموف للدولة، الذي ساد خلال السففنففات والسبعففنففات من القرن العشرفن، والذي أدى إلى أزمة المدفونفة الخارجفة وتدهور الفوازنات الماكرو-اقطفادفة، وارتفاع نسبة البطالة. وتسعى الاختفارات النفولفبرالفة إلى فجاوز كل ذلك ففبني سفاسات اقطفادفة تعتمد على فعالة الأسواق الحرة، وففمفن دور القطاع الخاص والملكفة الفردفة، والحفاظ على الفوازنات الاقطفادفة الكلية عبر ففبفق سفاسات فقشففة صارمة مثل ففض الانفاق العمومف والضغط على الأجور وحذف دعم المواد الأساسية، فمف شأن هذه الإجراءف، فف نظر مهندسف هذه الاختفارات، الدفع بعجلة النمو وفحسن الفافجفة والففافسفة وفشجع الفصففر لخلق فرص عمل جدفدة والحد من البطالة¹⁰³...

وضمن هذه الاختفارات النفولفبرالفة، قام المغرب على غرار بلدان عفدفة فف العالم العربف، بفغفر قوائن العمل لإضفاء طابع المرونفة على علاقات العمل، اسفجابة لضغوطات المؤسسات المالية الدولية والقطاع الخاص المحلي، بمبرر فشجع القطاع الخاص على الاسفثمار وبالفالف إحداف فرص شغل جدفدة¹⁰⁴. فوفق المنطور النفولفبرالف، فإن الفشرفعات والقوائن حول الحد الأدنى للأجور والحماية الاجتماعية وفقنفن قواعد فوظفف وفسرفح العمال¹⁰⁵، عوامل فحد من

101 Rajaa Mejjati Alami, Le secteur informel au Maroc, éd Presses Economiques du Maroc, 2006, p 111.

102 Rajaa Mejjati Alami, Le secteur informel au Maroc, éd Presses Economiques du Maroc, 2006, p 113.

103 محمد سعفد السعدف، السفاسات النفولفبرالفة والعمل غير المهفكل فف المنطفة العربفة، ضمن راصد الحقوق الاقطفادفة والاجتماعفة فف لبلدان العربفة حول العمل غير المهفكل، منشورات شبكة المنظمات العربفة غير الحكومية للفنمفة، 2016، ص 121-129.

104 ففعد أن كان قانون الشغل فف البدافة فظمر العمل المأجور

105 على سبفل المثال فراجع نسبة الفوظفف فف القطاع العام بالمغرب خلال الففرة الممندة من 1990 إلى 2010 من 26% إلى 11%. أنظر: محمد سعفد السعدف، السفاسات النفولفبرالفة والعمل غير المهفكل فف المنطفة العربفة، ضمن راصد الحقوق الاقطفادفة والاجتماعفة فف لبلدان العربفة حول العمل غير المهفكل، منشورات شبكة المنظمات العربفة غير الحكومية للفنمفة، 2016، ص 121-129.

تنافسية الشركات وتعيق تكيف أصحابها مع تقلبات السوق، وعلى العكس، تقلص مرونة العمل تكاليف العمالة وتسهل عمليات التوظيف والتسريح، كما أنها ترفع القيود عن العمل بعقود محددة الأجل، وتعطي أصحاب الشركات حرية أكبر لتحديد ساعات العمل.

ومن نتائج هذه الاختيارات النيوليبرالية، أن الهشاشة لم تعد توجد فقط على هامش الدولة ومؤسساتها المهيكلة وعلى هامش مؤسسات القطاع الخاصة المهيكلة، وإنما كذلك في قلبها¹⁰⁶، حيث ظهرت أشكال هشة من التشغيل في قلب المهيكل (أي في قلب الإدارة العمومية والمقاولات الخاصة). فعلى سبيل المثال، بدأت الوزارات والمصالح الحكومية بالمغرب في السنوات الأخيرة تتعاقد، مركزيا ومحليا، مع شركات خاصة للاضطلاع بمهام الحراسة والنظافة، ومن أجل التملص من توظيف عمال قارين ومتمتعين بكافة الحقوق المنصوص عليها في قانون الوظيفة العمومية ومدونة الشغل. والأكثر من ذلك، أن هذه المؤسسات الحكومية لا تستحضر، احترام قانون الشغل، في انتقائها للشركات التي ستتعاقد معها، حيث يكون الفيلص في الانتقاء هو العرض الأقل تكلفة، ولو على حساب حقوق الأجراء، بل إن الأمر امتد ليشمل التوظيف في أسلاك الوظيفة العمومية نفسها من خلال اعتماد ما يسمى بالتوظيف بالتعاقد في قطاع التعليم¹⁰⁷ منذ 2016، ولاحقا في باقي القطاعات الحكومية الأخرى.

وبخصوص استفادة الشباب العاطل من دعم معين من قبل مؤسسات الدولة (إعانة مالية أو تكوين)، الملاحظ بأن جميع المشاركين والمشاركات في البحث الميداني لم يسبق لهم الاستفادة، وإن كان هناك من أقر منهم بالحصول على شكل معين من أشكال المواكبة والتكوين في بحثهم عن العمل مثل بعض التكوينات التي تقوم بها الوكالة الوطنية لإنعاش التشغيل والكفاءات المعروفة اختصارا ب ANAPEC...

ذلك ما تؤكده أجوبة المستفيدين:

«استفدت من بعض التكوينات التي تقوم بها ANAPEC...وهي بادرة جيدة، ولكنها ستكون أحسن إذا ما استفاد الإنسان من التكوين ومن الشغل بعده..».

«بعض فرص الشغل الواردة عن طريق ANAPEC ذات أجور بخسة لا تكفي لسد متطلبات الحياة من تنقل وسكن وحاجيات أساسية يومية...علاوة على أن الوكالة تقتطع نسبة منها!»

ولم يكتف المستجوبون بتقييم إجراءات وتدبير السياسات المعتمدة في مجال النهوض بالتشغيل، بل قدموا مقترحات وحلول للنهوض بالسياسة العمومية في مجال التشغيل، مست جوانب عديدة، تلتقي إلى حد كبير مع ما انتهت إليه بعض هيئات الحكامة بالمغرب¹⁰⁸. من أبرز هذه المقترحات والحلول نذكر:

106 Dossier, Voyage u cœur de l'informel, in Economia (revue sociale, économique et managériale) N 102012-2010, 11-, pp 3380-.

107 مسلسل التوظيف بالتعاقد في قطاع التعليم بالمغرب ما يزال متواصلا (بلغ عدد اساتذة التعاقد اليوم حوالي 100 ألف أستاذ)، لكنه أدى إلى ظهور حركة احتجاجية في قطاع التعليم، هي حركة «أساتذة التعاقد» التي انخرطت في مواجهة اضرابات وإعتصامات منذ 2016 وإلى اليوم، ومطلبها الاساسي هو اسقاط التوظيف بالتعاقد، والادماج في الوظيفة العمومية.

108 كما هو الحال مثلا مع المجلس الاجتماعي والاقتصادي والبيئي في تقريره حول تشغيل الشباب الصادر سنة 2011. أنظر نص التقرير في موقع المجلس: www.ces.ma

- اعتماد الديمقراطية التشاركية، بفسح المجال للجميع، بما فيهم الشباب من الجنسين، للانخراط في عملية التنمية، التي تنطلق من معرفة الحاجات والاحتياجات الحقيقية للسكان؛
- اعتماد مبادئ الشفافية والانصاف وتكافؤ الفرص في التشغيل، ووضع حد للمحسوبية والزبونية؛

لكن أهم ما يحتاجه مثل هذا البرنامج، وكل البرامج والسياسات التي تستهدف النهوض بتشغيل الشباب، في نظر غالبية الشباب العاطل المستجوب هو التفعيل، لا سيما التفعيل وفق مقاربة تشاركية ومن منظور يراعي البعد الترابي territorialisées (ومنها خصوصيات حي المدينة العتيقة ... (يسلا)

الانخراط في الاحتجاج والعمل الجمعياتي والحزبي

يتضح من خلال المعطيات المستمدة من الميدان، أن الاتجاه العام لأجوبة المبحوثين، بخصوص المشاركة في الحركات الاجتماعية والأنشطة الاحتجاجية التي لها علاقة بمطلب التشغيل، ينحو منحى ضعف المشاركة. ذلك أن أغلب هؤلاء الشباب لم يسبق لهم أن شاركوا في أي فعالية أو نشاط احتجاجي من أجل المطالبة بالتشغيل، لكن عدد منهم سبقت له المشاركة في احتجاجات لها علاقة بمطالب تهم جوانب أخرى من حياتهم كشباب، مثل المشاركة في الاحتجاج ضد قرار تسقيف سن الولوج إلى مهنة التعليم أو المشاركة في الاحتجاجات التلاميذية والطلايبية ضد الساعة الإضافية¹⁰⁹.

وتجدر الاشارة إلى أن الفعل الجماعي للعاطلين في المغرب، هو شبه محتكر منذ نهاية سنوات الثمانينيات من طرف فئة خاصة، هي فئة أصحاب الشهادات العليا. تجارب عديدة عبر العالم كشفت بأن عدم تجانس فئة «العاطلين» شكلت غالبا عائقا أمام الانتقال إلى الفعل. لكن هذه المسألة مهمة في الحالة المغربية، بالنظر إلى أن كل أعضاء جماعة العاطلين تشترك نفس وضع الحاصل على الشهادة. فالحراك الاحتجاجي من أجل المطالبة بالتشغيل نادرا ما انفتح على غير الحاصلين على الشهادات، وعندما يقوم بذلك، يكون مصيره الفشل¹¹⁰.

ويجد الفعل الاحتجاجي لفئة العاطلين، أصحاب الشهادات، مشروعيتها في ما يؤمن به هؤلاء العاطلين، خصوصا المنحدرين منهم من الطبقات الشعبية، وهم الغالبية، والذين يشعرون بأنهم مقصيين مبدئيا من سباق التنافس حول الشغل، مقارنة مع نظرائهم المنحدرين من طبقات ميسورة، القادرين على استثمار وتعبئة رساميلهم العلائقية أو المالية، من أجل الولوج

109 المقصود هنا الاحتجاجات التلاميذية التي تفجرت سنة 2018 في عدد من المدن المغربية، ضد القرار الحكومي القاضي بإضافة ساعة إلى التوقيت العادي (GMT+1). فبعد أن ظلت البلاد لزمين طويل تعتمد توقيت غرينتش كنوقت رسمي، شرعت الحكومات المتعاقبة في السنوات والعقود الأخيرة في إضافة ساعة بشكل مؤقت خلال التوقيت الصيفي، ثم عمدت تثبيت هذه الإضافة بشكل دائم ونهائي سنة 2018، بمرور خدمة مصلحة البلاد، مما أثار حفيظة واحتجاج المغاربة، عبر شبكات التواصل الاجتماعي، ومن خلال أشكال احتجاجية، لعل أبرزها الاحتجاجات التلاميذية، والتي كان مطلبها الأساسي هو العودة للتوقيت الرسمي، وإن كانت المطالب المعبر عنها في المظاهرات الاحتجاجية، تتجاوز ذلك إلى مناهضة الظلم و«الحكرة» وشعارات أخرى تطالب بتغيير الأوضاع في البلاد مع تغيير الساعة...

110 Frédéric Vairel, Le Mouvement du 20 février : vitalité et limites des protestations marocaines, in Ouvrage Collectif, Soulèvements et recompositions politiques dans le monde arabe, Sous la direction de Michel Camau et Frédéric Vairel, éd Les Presses de l'Université de Montréal, 2014, P 282.

يسر إلى سوق الشغل، بفعل سيادة منطق الزبونية والمحسوبية في المجتمع...

ويعبر أصحاب الشهادات العاطلين عن مطالبهم من خلال بنيات التعبئة، التي تشكل الوحدة الأساسية للتفاوض مع المسؤولين العموميين، من أجل انتزاع حقوقهم (مناصب شغل في الوظيفة العمومية أساسا أو في المساعدة على إحداث مشاريع مدرة للدخل (توزيع أكشاك بالمدن - منح أراضي للفلاحة بالمنطق القروية الحيطه بالمدينة...الخ)) ومن اجل توزيع نتائج الاحتجاج (توزيع الموارد العمومية المنتزعة).

وعرفت مقاومة الشباب لواقع البطالة بالمغرب ففزة نوعية، بإنشاء أصحاب الشهادات العاطلين (الحاصلين على شهادات الإجازة بشكل خاص) للجمعية الوطنية لحاملي الشهادات العاطلين بالمغرب¹¹¹ (ANDCM) التي تأسست سنة 1991. يتعلق الأمر بالتنظيم الوطني الوحيد الخاص بالعاطلين من أصحاب الشهادات، والذي له فروع محلية بمختلف مناطق المغرب. أسس حملة شهادات الماستر والدكتوراه، منذ منتصف سنوات التسعينيات، تسيقيات جديدة مستقلة خاصة ب «الأطر العليا»، متمركزة بالرباط. تتميز هذه التسيقيات بوتيرة احتجاج مكثفة، تنتهي غالبا إلى توظيف أعضائها في الوظيفة العمومية، لتتفكك تنظيما. فمنذ سنة 1996، تأسست حوالي خمسين تسيقية للأطر العليا، سرعان ما اختفت أو أدمجت في بعضها البعض. ولا واحدة من تلك التسيقيات تم الترخيص لها رسميا من قبل وزارة الداخلية¹¹²، وحدها الجمعية الوطنية لحملة الشهادات المعطلين شرعت في وضع ملفها القانوني، لكنها لم تتسلم الترخيص بشكل صريح ورسمي. وهذا يعني أن كل تظاهرات العاطلين في الشارع، سواء تعلق الأمر بوقفات احتجاجية أو مسيرات، تمت خارج إطار القانون المنظم (قانون الحريات العامة لسنة 1958). هذا يؤكد بأننا أمام واحدة من الجمعيات القائمة والموجودة بحكم الواقع، أكثر منها جمعية قائمة بحكم القانون. فسبق أن رصدت منظمات حقوقية، وعلى رأسها منظمة هيومان رايت ووتش، حالات جمعيات تحرمها السلطات المغربية من الاعتراف القانوني، ومنها الجمعية الوطنية لحاملي الشهادات المعطلين بالمغرب¹¹³، هذه الجمعيات هي ضحية قمع «خفيف»، بلغة هيومان رايت ووتش، يتمثل في عدم الاعتراف القانوني. تسعى السلطات العمومية من خلال هذا «القمع الخفيف» لمثل هذه الجمعيات إلى إضعافها وتهميشها بشكل قانوني، لاعتبارات تتعلق بأسمائها، أو أهدافها أو أعضائها¹¹⁴.

أما على مستوى اهتمام الشباب بالمشاركة السياسية، فالملاحظ عزوف أغلب المشاركين والمشاركات عن السياسة. قد يبدو مثل هذا الموقف غريبا، بالنظر إلى ما تمثله السياسة في حياتنا: فنحن

111 اسم الجمعية كما يدركها مؤسسوها وأعضاؤها هو: الجمعية الوطنية لحملة الشهادات المعطلين (وليس العاطلين) بالمغرب.

112. Montserrat Emperor Badimon, Les diplômés chômeurs et le Mouvement du 20 février au Maroc, in Ouvrage Collectif, Soulèvements et recompositions politiques dans le monde arabe, Sous la direction de Michel Camau et Frédéric Vairel, éd Les Presses de l'Université de Montréal, 2014.

113 ويتضمن تقرير هيومان رايت ووتش حيثيات وضعية كل جمعية من الجمعيات المعنية التالية. أنظر تقرير لمنظمة هيومان رايت ووتش حول موضوع «حرية تأسيس الجمعيات في المغرب»:

- منشورات هيومان رايت ووتش، تقرير «حرية تكوين الجمعيات: نظام تصريحي بالاسم فقط»، أكتوبر- 2009.

114 ومن مظاهر هذا القمع أو التضييق نجد: الحرمان من الدعم العمومي، ومن استئجار القاعات العمومية، ومن إمكانية فتح حساب مصرفي، والمحكمة في حالة جمع أموال أو تحصيل مستحقات باسم الجمعية، أو حتى الحرمان من الحق في تنظيم مظاهرة مصرح بها قانونيا في الأماكن العمومية.. الخ...أنظر:

- منشورات هيومان رايت ووتش (2009) -مرجع سابق.

نعيش مغمورين Immergés في السياسة¹¹⁵، إذ تتغذى يوميا بأخبارها وتناثر بممارساتها وتدابيرها، لدرجة الشعور في كل لحظة بأننا محمولين ب «تيار» السياسة الجارف. والحال أن موقف هؤلاء الشباب العاطل، حتى وإن كان يُحْتَرَلُ في عبارة: «لا شأن لي بالسياسة»، ينطلق من فهم معين للسياسة، وينطوي ضمنا، بل ويجسد واقعا، موقفا من السياسة كما تمارس اليوم في الدولة وفي المدينة والحي.

وقد سبق لبعض الدراسات ان كشفت عن هذا الموقف الحذر للشباب من المشاركة السياسية في مختلف أبعادها (الانخراط في الحزب السياسي أو المشاركة في الانتخابات... الخ)، فعلى سبيل المثال طُلب من المستجوبين، في بحث سوسيولوجي، التعبير عما إذا كانوا يرغبون في الانخراط في منظمات ذات طبيعة مدنية أو سياسية وكان على الاختيار ألا يكون حصريا: حيث تمت دعوة المستجوب إلى الاختيار ضمن لائحة تضم الحزب السياسي، والنقابة، والتعاونية، وأربعة أنواع من الجمعيات. فكانت النتائج كما يلي:

10% فقط من المستجوبين عبروا عن رغبتهم في الانخراط في حزب سياسي و% 12 في نقابة، والنسبة الأكثر ارتفاعا تم تسجيلها لصالح الجمعيات (ما بين% 32 و% 41) ولصالح التعاونيات% 36. وهكذا فنسبة الأشخاص الراغبين في الانخراط ضمن الإطارات التقليدية للعمل السياسي (حزب سياسي ونقابة) تظل ضعيفة. وعلى العكس، فإنها ترتفع بوضوح حين يتعلق الأمر بالعمل الجمعي، مما يعني وجود تراتبية قائمة بشكل ضمني بين حقل السياسة الذي تقلصت جاذبيته وحقل المجتمع المدني الذي صار أكثر جاذبية¹¹⁶، هذا على الرغم من الوضع المفارق لمثل هذا الموقف السلمي من المشاركة السياسية، الذي ينطلق من الشك والحذر تجاه الأحزاب السياسية و ينتهي إلى العزوف عن الانخراط في كل ما يمت للسياسة بصلة، وضع مفارق طبعاً بالقياس إلى الأهمية التي لهذه الكيانات السياسية، التي تمنح للحقل السياسي ديناميته، والتي تمثل التجسيد العملي للدائرة الأكثر مرتبة من المشاركة السياسية¹¹⁷...

وفي هذا الصدد أكد عدد لا بأس به من المشاركين والمشاركات في البحث الميداني على تفضيل الانخراط والمشاركة إما في العمل المدني الذي يمنح، في اعتقادهم، مساحة للأفراد من أجل تفرغ طاقتهم والتعبير عن آمالهم وانتظاراتهم، أو في بعض التعبيرات الحضرية مثل «الإلتراس».

ونشير في هذا الصدد إلى انتماء عدد من المبحوثين، على غرار أقرانهم من شباب حي المدينة العتيقة، وباقي أحياء مدينة سلا الأخرى، إما إلى «إلتراس عسكري» و«بلاك أرمي» المشجعة لفريق الجيش الملكي المحسوب جغرافيا على مدينة الرباط، أو إلى «إلتراس بيراتس» (القراصنة) المشجعة لفريق الجمعوية سلا.

115 P. Bourdieu « penser la politique », Actes de la recherches en sciences sociales, n 71 /72, mars 1988

116 أنظر على سبيل المثال، في مجال السوسيولوجيا بحث:

رحمة بورقية وآخرون «التقرير التركيبي للبحث الوطني حول القيم» ضمن المؤلف الجماعي «المغرب الممكن: 50 سنة من التنمية البشرية وأفاق سنة 2025، مطبعة دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 2006.

117 Rahma Bourqia, Culture politique au Maroc, à l'épreuve des mutations, éd L'Harmattan, Paris, 2011. P77.

والالتراس هنا، يشير الى شكل تنظيمي شبابي واحتجاجي، ينطوي على عالم غير متجانس، وصعب الاختزال في كيان نمطي. ففيما وراء اختلافات الأصول والأوضاع الاجتماعية للمتسبين للالتراس، وتنوع أشكال تنظيمها وأساليب التعبير عن أنشطتها، تشترك الالتراس في عدد من السمات من بينها سن أعضائها الشبابي، وارتباطها الشديد بناديها، وثقافة أعضائها الكروية وإلمامهم بعالم كرة القدم وبتفاصيل حياة ناديهم، كما تشترك الالتراس في اعتماد رموز وطقوس خاصة بها(في اللباس، والموسيقى، والشعارات والألوان...)، كما تتميز بارتباط أعضائها الوجداني القوي بجهة معينة من الملعب الذي يحتضن مباريات فريقهم،¹¹⁸ ولو أن ما يميز الالتراس مدينة سلا، ليس «احتلال» زوايا وجهات بعينها في الملعب، وإنما سعيها إلى «احتلال» مناطق بعينها في أحياء المدينة. وهذا الذي يفسر الاصطدامات التي تحدث بين الفينة والآخرى بين الالتراس فريق الجمعية السلاوية، وإلتراس فريق الجيش الملكي. إذ، ترفض الالتراس الجمعية السلاوية أن يمارس جمهور الفريق العسكري المحسوب جغرافيا على الرباط نشاطاته بحرية في مدينتهم التي تضم المركز الرياضي للجيش الملكي بمنطقة المعمورة، خصوصا وأن «إلتراس» فريق الجيش الملكي ذي نزوع توسعي، إذ يتواجد في كل المدن المنتمية إلى «الرباط الكبرى» (مدن الرباط وسلا وتمارة والصخيرات وتامسنا وعين عودة... الخ). وغالبا ما يتمحور الصراع بين الالتراس، الذي يجري في الأحياء الشعبية بمدينة سلا، حول ما يسمى بـ «الطاغ»، وهي رسومات غرافيتية عملاقة، تحرص كل مجموعة على وضعها على بعض البنايات داخل الأحياء كتأكيد على سيطرتها على هذه المنطقة من الحي أو تلك..

وسواء في حالة الانخراط في العمل المدني أو الانتماء الى الالتراس، يتعلق الأمر، حسب المشاركين والمشاركات، باختيارات طوعية لفضاءات وآفاق أرحب وأوسع، تتيح إمكانيات وفرصا من أجل تطوير الذات على مجموعة من الأصعدة عكس الأحزاب وعالم السياسة.

ومن هذا المنطلق، يؤمن الشباب عموما بفكرة الالتزام ويثق في التنظيمات المدنية، كما أكدت ذلك العديد من الدراسات. غير أن نسبة انخراطهم الفعلية هي غالبا أقل من نواياهم المعلنة للمشاركة¹¹⁹. هذا علاوة على أن انخراط الشباب في الجمعيات هو غالبا من أجل تحقيق الذات أو من أجل الترفيه عبر ممارسة الأنشطة الرياضية أو الثقافية أو الفنية، أكثر عموما مما ينخرط في الجمعيات التي تسعى لخدمة القضايا الجماعية والتي تهتم بمصير الفئات الاجتماعية التي في وضعية هشاشة (الشباب والشابات العاطلون عن العمل، المهاجرون، النساء المعنفات...)...

وتجدر الإشارة هنا إلى أن تطور العمل الجمعي في المجتمعات الحديثة، غير مفصول عن تطور الوقت الحر، وعن التحولات التي عرفها عالم الشغل، فالعمل الجمعي، كما أكد الباحث جون فيار، هو جزء لا يتجزأ من «الإبداعية الغنية التي يتم خلقها خارج أوقات العمل»¹²⁰، أي في الوقت الحر الذي يشمل المساء، ونهايات الأسبوع والعطل... الخ. لهذا فطبيعي ان يشعر الشاب العاطل، المقصي من الشغل، أنه مقصي أيضا من باقي دوائر الحياة الاجتماعية، فيميل

118 هذا ما تؤكدته الأبحاث السوسيو-انثروبولوجية التي تناولت ظاهرة «الالتراس» من منظور مقارن. انظر على سبيل المثال: Christian Bromberger, Le match de football, Ethnologie d'une passion partisane..., éd de la Maison des sciences de l'homme, 1995 (édition numérique 2015), p.314-

119 Olivier Galland, Parlons Jeunesse en 30 questions, éd Direction de l'information légale et administrative, Paris, 2013. p 62.

120 Viard Jean, le sacre du temps libre :la société des 35 heures, éd de L'aube poche, 2004. P.11.

إلى قطع طوعي لعلاقاته الاجتماعية ولكل أشكال المشاركة في الحياة الاجتماعية، بما في ذلك المشاركة المدنية والسياسية كما قلنا سابقا. خصوصا وأن هذه المشاركة، لا تقتصر فقط استقرارا اجتماعيا واستقلالية مالية، بل تتطلب تكلفة مادية (اشتراكات ومساهمات مادية، مصاريف التنقل، تضحية مادية... الخ) غير متاحة له دائما.

فالبطالة، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، لا تؤثر على الصحة النفسية للشباب العاطل وعلى علاقاته الاجتماعية مع الأسرة والأصدقاء، بل تطال جانب المشاركة في الحياة الاجتماعية، بما فيها المشاركة المدنية والسياسية: سواء تعلق الأمر بالنشاط الاحتجاجي، أو بالفعل النضالي السياسي، أو النقابي أو بالمشاركة في الحياة الجموعية¹²¹...

مسألة أخرى يتعين استحضارها هنا لفهم علاقة الشباب العاطل اليوم بالعمل المدني وبالفعل الاحتجاجي، هي أننا نشهد اليوم تحولا في أشكال الالتزام والفعل المدنيين، فالأفراد ينزعون أكثر فأكثر نحو التحرر من الأطر الاجتماعية، والمرجعيات الأيديولوجية التي تحكمت طويلا في الالتزام النضالي engagement militant (المرجعية الماركسية كمثال).

ولعل من المميزات الأساسية للالتزام الجديد، الموسوم لدى بعض علماء الاجتماع بالالتزام مع الإبقاء على مسافة engagement distancié مع التنظيمات المدنية ومع أشكال الفعل الجماعي¹²².. فهذا النمط من الالتزام ينشأ في إطار عمل جماعي يروم بلوغ أهداف مشتركة وليس في سياق إيمان قبلي بنظام أيديولوجي كيفما كان، كما أنه يتميز بطابعه اللحظي وغير المهيكل حيث تحل في الغالب الروابط الشخصية محل الانتماء إلى التكتلات الاجتماعية الكبرى، كما أنه التزام براغماتي، يرتبط أكثر بما هو محلي¹²³، وينزع أكثر نحو المهنية منه نحو النضالية. فالشباب عموما، كان عاطلا أم لا، لم يعد مستعدا للتضحية «بلا حدود»، وإنما مستعد مبدئيا للتضحية في وقت ما، ومكان بعينه، وفي ظل شروط محددة، وضمن حدود معينة، لا يمكن تجاوزها.

وانطلاقا مما سبق، يلاحظ فعلا استمرار اقتناع نسبة مهمة من المشاركين والمشاركات بجدوى النشاط الاحتجاجي من أجل المطالبة بالتشغيل، واعتبار الاحتجاج «السييل الأوحده الممكن والمناسب لتحقيق المطالب، ولو تعلق الأمر بالحد الأدنى من المطالب»، كما ورد، على لسان أحد المبحوثين:

«في رأيي الاحتجاج في المغرب يعطي أكله، خصوصا في بعض المحطات، مثل تجربة حركة 20 فبراير... التي أعطت نتيجة على مستوى تغيير الدستور... لكن عدا بعض المحطات والحالات... فإن الاحتجاجات عموما، لا تحقق المبتغى بشكل كامل... فالاحتجاجات غالبا ما تكون عبارة عن احتجاجات مرحلية بطموحات مرحلية وبناتج مرحلية... رغم ذلك، يبقى ان للاحتجاجات على

121 Jérôme Gautié, Le chômage, op, cit, p.46.

122 Maud Simonet, le monde associatif : entre travail et engagement, in « sociologie du monde du travail », éd quadrige-PUF, 2006, p194

123 Bulletin d'information de la conférence permanente des coordinations associatives, Etat des lieux de l'engagement associatif, N3, juillet-aout, 2002, pp 27-.

الأقل فضل تكسير حاجز الصمت والتعبير عن الغضب وإسماع الصوت، وتجسيد شكل من التأثير على السياسات العمومية والضغط عليها، حتى وإن لم تحقق أهدافها فعلا وبشكل كامل...»

وكما ورد على لسان مبحث آخر:

«أحيانا يتولد لدي شعور بأنه ليس هناك أي جدوى من الاحتجاج... فقط يتم قمع المحتجين بدون نتيجة تذكر، مثلا احتجاجات اسانذة التعاقد، فبعد سنوات من الاحتجاج لم يحصلوا على شيء عدا القمع المفرط وبعض الاعتقالات في صفوفهن...».

وإذا كان الاتجاه العام الذي يمكن استنتاجه بخصوص علاقة المشاركين والمشاركات في البحث الميداني، بالأنشطة الاحتجاجية هو ضعف المشاركة أو عدم الرغبة في المشاركة، رغم الإقرار بأهمية الاحتجاج لتحقيق المطالب، فإن هذا الموقف يبدو مبررا، إن لم نقل عقلانيا، إذ يعزى إلى مجموعة من المبررات التي ساقها المبحوثون، لعل من أبرزها ما يلي:

الخوف من تبعات المشاركة في الأنشطة الاحتجاجية، والتي قد تصل إلى حد الحرمان أو الاقصاء من الشغل ووضع قيود أمام الاستفادة من بعض الحقوق (الحصول على أوراق رسمية...)، وأمور أخرى غير متوقعة في نظرهم؛

النشاط الاحتجاجي لا يؤدي إلى تحقيق مكاسب كبيرة، إذا قارنا أهدافه ووسائله مع النتائج التي يمكن تحقيقها،

خطر التعرض للقمع والتعنيف، بل وإمكانية الاعتقال، هذا بغض النظر عن قانونية الاحتجاج

غياب الثقة في الجهات (السياسية والمدنية او غيرها...) الداعية للاحتجاجات، وعدم وضوح غاياتها أحيانا، غير مشجعين على المشاركة؛

ضبابية الوضعية الحقوقية بالبلاد وعدم وضوحها، ثم هيمنة المقاربة الأمنية غير مشجعان على الانخراط في الاحتجاج؛

الاحتجاج وسيلة غير شرعية للتعبير، من الأفضل اعتماد وسائل تعبير قانونية، عبر القنوات السياسية القانونية (مجالس منتخبة (بلدية، برلمان)، آليات الديمقراطية التشاركية (عرائض، هيئات التشاور العمومية... إلخ) ...

فكما يؤكد أحد المبحوثين:

«هيمنة المقاربة الأمنية على أية مقاربة أخرى (مقاربة اجتماعية أو حقوقية... إلخ) يجعل أحيانا عدد أفراد الشرطة أكثر من عدد المحتجين، نجد أنفسنا أمام تشكيلات من قوى حفظ الأمن المختلفة، تشمل أفرادا من الشرطة ومن القوات المساعدة، ومن أعوان السلطة...»

هذا، ولو أن هناك من المستجوبين من يرفض الاحتجاج ويعتبره ممارسة غير شرعية. والواقع أن هذا الرأي، رغم أنه يمثل أقلية، إلا أنه يتماهى مع توجه فكري يرى أن النزول إلى الشارع من أجل الاحتجاج، وسيلة غير شرعية للتعبير، والتفاف على القنوات التقليدية لتمثيل المصالح، ويعتبر بأن كل وسيلة للتعبير غير آليات الديمقراطية التشاركية، هي خروج عن روح التعاقد العام المؤسس للمجتمع، وهي وسيلة تعبير في يد جماعات محدودة، لا ينبغي أن تفرض نفسها على الآخرين، بالنظر إلى أنها لا تعبر عن التوافق العام. ففي نظر باحث مثل جيوفاني سارتوري Giovanni Sartori: «خارج الانتخابات، الأصوات التي تُسَمَّع هي أصوات أقلية أو نخب، إنها أصوات جزء فقط من الشعب، وحتى لو ضمت ملايين المتظاهرين، فهؤلاء ليسوا هم الشعب (ما دام أن ملايين آخرين يظلون صامتين) ...»¹²⁴.

غير أن سير وتطور مجتمعاتنا، كما نعاينه كل يوم مباشرة أو من خلال قراءة الصحف والاطلاع على مختلف وسائل الإعلام، لا يختزل في الانتخابات وفي الالتزام السياسي في إطار تنظيمات مُؤَسَّسة (الحزب أو النقابة أو الجمعية). فالمشاركة السياسة تتمظهر وما تزال تعبر عن ذاتها من خلال أفعال احتجاجية متعددة. فقد صارت الاحتجاجات، منذ العقود الأخيرة من القرن العشرين عنصرا أساسيا من الحياة الديمقراطية في مجتمعاتنا¹²⁵.

يتضح من خلال المواقف المتباينة نسبيا للمشاركين والمشاركات في البحث الميداني من الانخراط في الاحتجاج أو في العمل الجمعي والحزبي، أننا بصدد فئة اجتماعية غير منسجمة إلى حد ما. وإذا استحضرننا ما انتهت إليه عدد من الأبحاث حول ذات الموضوع، نستنتج أننا أمام شباب عاطل أكيد، لكن مختلف من حيث الدوافع والرهانات التي تحركه في هذا المجال، ومن حيث تصوراتها وانتظاراتها من العمل الاحتجاجي أو الحزبي أو الجمعي.

لكن يبقى الالتزام أو بالأحرى الانخراط في الاحتجاج والعمل الجمعياتي والحزبي، هو تعبير عن وعي وعن إيمان بقيم (الحرية و التضامن، والتضحية، والانصاف، واللاتمييز، احترام الاختلاف... الخ)، لكنه هو ذاته قيمة في ذاته، بل من القيم الجديدة والصاعدة الأكثر انتشارا في مجتمعاتنا اليوم، كما أنه قيمة بالنظر إلى ما يتيح للشابة أو الشاب من امكانية لتحقيق الذات وللاندماج والاعتراف الاجتماعي عبر المشاركة الحرة والطوعية في الفعل الجماعي (النشاط الاحتجاجي، العمل الحزبي أو الجمعي)، وبالنظر إلى أنه وسيلة لممارسة حقوقه ومسؤولياته باعتباره فردا داخل مجتمعه (أو مدينته أو حيه)، وفرصة لاكتساب معارف ومؤهلات جديدة، وتنمية شخصيته وتعزيز استقلالته وإبداعته.¹²⁶ إذ لا ينبغي أن ننسى أن أشكال الفعل الجماعي (الاحتجاجي أو الحزبي أو الجمعي) هي من حيث المبدأ فضاءات للتنشئة الاجتماعية وللتعلم، ففي نظر الباحث جليبر غاربال¹²⁷: نحن لا نأتي إلى التنظيمات التطوعية فقط من أجل «العطاء» والتضحية، وإنما أيضا نبحث عن شيء، وفقا لانتظاراتنا ذاتها. فالعطاء أو التضحية بالمال

124 ورد عند: Olivier Fillieule, Stratégies de la Rue, Les manifestations en France, éd Presses de Sciences Po, 1997.p16

125 Ibid, p 1617-.

126 Dan Ferrand-Bachmann, le Métier de bénévole, éd Economica, collection Anthropos, 2000.p15

127 Gérard mesnil, Introduction, in Gilbert Garibal, bénévolat : mode d'emploi, éditions de Vecchi-Paris, 2004. p.9

والجهد، ووضع الذات رهن إشارة الغير، وبذل الطاقة...الخ، هي كذلك، وفي كل الحالات، أخذ واكتساب وتعلم...

وفي هذا الصدد، اعتبر المستجوبون بأن تجربة الانخراط في الفعل الاحتجاجي للمطالبة بالتشغيل أو للمشاركة في العمل الجمعي والحزبي، بغض النظر عن الصعوبات والتحديات التي تقترن بها، تشكل دائما تجربة مفيدة للشباب، ليس فقط بما تتيحه لهم من فرص للتعبير والفعل وللتنوع وللضحية (بالوقت والجهد والمال) وللمساهمة بالتالي في التغيير...الخ، وإنما أيضا بما تسمح لهم من تجريب لأدوار جديدة ولنسج لعلاقات أكثر اتساعا وتنوعا، ومن اكتساب لخبرات وتعلم لمعارف وقدرات ومهارات حياتية، فبفضل تلك التجربة أمكن لهم مثلا:

- تعلم طرق الترافع من أجل الدفاع عن الحقوق (من ضمنها أو على رأسها الحق في الشغل) والمطالبة بها؛
- تعلم القدرة على التعبير عن الرأي بشكل واضح وصريح تجاه القرارات والسياسات العمومية أو تجاه أفكار معينة؛
- تعلم قيمة المسؤولية تجاه الذات والغير؛
- اكتساب قيم الديمقراطية وحقوق الإنسان واستدماجها، في أفق تجسيدها على مستوى الخطاب والممارسة والتعامل مع الغير؛
- تعلم عملي لقيم التضحية والتضامن والغيرية؛
- تعلم المزاوجة بين المطالبة بالحقوق والقيام بالواجبات؛

يتضح كل ذلك من خلال ما ورد على لسان المبحوثين:

«تعلمت أن أترافع. فالحق ليس منة من أحد. الحق يؤخذ وينتزع...بالأخص لما تعيش في دولة مثل المغرب، فمن الصعب أن تنعم بحقوقك الأساسية بدون نضال، فمثلما تعلمنا منذ الجامعة (ما ضاع حق وراءه مطالب)...

» تعلمت أن أعبر عن رأيي بشكل واضح تجاه سياسة عمومية معينة وضد فكرة معينة، كما تعلمت أن أناضل من أجل تجسيد رأيي، أن يكون لدي صوت ورأي وحضور في المجال الذي يهمني ويمسني... لذا من الضروري أن تترافع وأن نحتج لأجل تحقيق حقنا في شغل كريم ومنصف، ومن أجل تحقيق الديمقراطية وتجسيد حقوق الإنسان بشكل ملموس...»

وتؤكد أجوبة المبحوثين هنا، ما سبق أن أبرزته دراسات سابقة 128، حيث تؤثر درجة الوعي والانخراط في الاحتجاج والعمل الجمعياتي والحزبي في قدرة الشباب على التحليل والفعل. الأمر الذي يفسر الاختلاف الكبير الموجود بين الشباب الذين يعتبرون البطالة كنتاج لفشل شخصي أو قدر أعمى، وما يتولد عن ذلك من شعور بالذنب أو السلبية ومن احباط وقتل للأمل، وبين

أولئك الشباب، ومنهم جانب مهم المبحوثين، والذين يروا في البطالة تعبيرا عن منطق النظام الاقتصادي وعن الاختيارات السياسية المعتمدة في مجالات التشغيل والتكوين، والذين يواصلون النضال من أجل تغيير واقعهم في اتجاه الأفضل، أو على الأقل يعون أهمية ذلك، ويطمحون بالتالي إلى خوض التجربة، وتجاوز مختلف الصعوبات والتحديات التي تقترن بها...

المراجع المعتمدة

André Adam, une enquête auprès de la jeunesse musulmane au Maroc, Aix-En-Provence, Annales de la Faculté des Lettres, 1962.

Authier Jean-Yves. Le quartier à l'épreuve des «mobilités métropolitaines». In : Espace, populations, sociétés, 1999-2. Les mobilités spatiales. pp. 291-306.

Barthélemy Martine, association : un nouvel âge de la participation ? éd Presses de Sciences Po, Paris –Collection Académique, 2000.

Bulletin d'information de la conférence permanente des coordinations associatives, Etat des lieux de l'engagement associatif, N3, juillet-aout ,2002.

Christophe Stener, jeune, in Ouvrage Collectif, Dictionnaire politique d'Internet et du numérique, Les 66 enjeux de la société numérique, coordonné par Christopher Stener, éd La Tribune, 2010. P 69 - 70.

Dan Ferrand-Bechmann, le Métier de bénévole, éd Economica, collection Anthropos ,2000.

Dominique Schnapper, Qu'est-ce que l'intégration ? éd Gallimard, Paris, 2007.

François Dubet « Des jeunesses et des sociologies. Le cas Français » in Sociologie et sociétés, vol. 28, n° 1, 1996, p. 23-35.

François Dubet, La Galère : jeunes en survie, Paris, Fayard, 1987.

Frédéric Vairel, Le Mouvement du 20 février : vitalité et limites des protestations marocaines, in Ouvrage Collectif, Soulèvements et recompositions politiques dans le monde arabe, Sous la direction de Michel Camau et Frédéric Vairel, éd Les Presses de l'Université de Montréal, 2014.

Gérard mesnil, Introduction, in Gilbert Garibal, bénévolat : mode d'emploi, éditions de Vecchi-Paris, 2004.

Gilles Pronovost, L'univers du temps libre et des valeurs chez les jeunes, éd Presses de l'université du Québec , 2007.

Hassan Rachik, Jeunesse et changement social, in 50 ans de développement humain, Perspectives 2025, Rapports thématiques, Société, Famille et Jeunesse, pp. 193-215

- Jérôme Gautié, Le chômage, éd La Découverte, Paris, 2015
- Kennth L. Brown « Les gens de Salé. Les Slawis : Traditions et changements », éd Eddif, Casablanca, 2001.
- Maud Simonet, le monde associatif : entre travail et engagement, in « sociologie du monde du travail », éd quadrige-PUF ,2006.
- Michel Fize, Le deuxième homme, réflexions sur la jeunesse et l'inégalité entre génération, éd Presse de la Renaissance, Paris, 2002. p118.
- Mme Diane-Gabrielle Tremblay, économiste "Chômage, flexibilité et précarité d'emploi: aspects sociaux". In Ouvrage Collectif, Traité des problèmes sociaux, sous la direction de Fernand Dumont et autres, éd de L'Institut québécois de recherche sur la culture, Montréal, 1994, pp. 623-652.
- Montserrat Emperador Badimon, Les diplômés chômeurs et le Mouvement du 20 février au Maroc, in Ouvrage Collectif, Soulèvements et recompositions politiques dans le monde arabe, Sous la direction de Michel Camau et Frédéric Vairel, éd Les Presses de l'Université de Montréal, 2014.
- Mounia Bennani-Chraïbi, Soumis et rebelles, les jeunes au Maroc, éd CNRS, Paris, 1994.
- Olivier Fillieule, Stratégies de la Rue, Les manifestations en France, éd Presses de Sciences Po, 1997.
- Ouvrage collectif, Jeunesses arabes, du Maroc au Yémen : loisirs, cultures et politiques, sous la direction de Laurent Bonnefoy et Myriam Catusse, éd La Découverte, Paris, 2013.
- Olivier Galland, Parlons Jeunesse en 30 questions, éd Direction de l'information légale et administrative, Paris, 2013.
- Olivier Galland, Les jeunes, éd La Découverte, Paris, 1987.
- Ouvrage collectif, Penser la vulnérabilité: visages de la fragilisation du social, Sous la direction de Vivianne Chatel et Shirley Roy, éd Presses de l'université du Québec, 2008.
- Paul Pascon et autres, ce que disent 296 jeunes ruraux, in Bulletin Economique et Social du Maroc, N 112-113, 1969.
- Pierre Muller, Les politiques publiques, éd PUF, coll Que Sais-je ? 10e édition, 2013
- Rahma Bourqia, Culture politique au Maroc, à l'épreuve des mutations, éd L'Harmattan, Paris, 2011.
- R. Bourqia et autres, Les jeunes et les valeurs religieuses, éd Eddif-Codesria, Casablanca, 2000.

Rahma Bourqia, M. El Harras, et D. Bensaid, Jeunesse estudiantine marocaine, valeurs et stratégies, publication de la Faculté des Lettres et Sciences Humaines, Rabat, 1995.

Robert Montagne, Révolution au Maroc, éd France Empire, Paris, 1953.p301.

Sophie Duchesne et Florence Haegelen, L'entretien Collectif, éd Armand Colin, Paris, 2009.

Paul Pascon et autres, Ce que disent 266 jeunes ruraux, in Bulletin Economique et social du Maroc, Janvier-Juin, 1969, p1-144.

P. Bourdieu « penser la politique », Actes de la recherche en sciences sociales, n 71 /72, mars 1988.

Ulrich Beck « la société du risque : sur la voie d'une autre modernité » tr de laure Barnardi éd Flammarion –Coll champs-2001.

Viard Jean, le sacre du temps libre :la société des 35 heures, éd de L'aube poche, 2004.

Waterbury, John, Le commandeur des croyants, La monarchie marocaine et son élite, Paris, Presses Universitaires Françaises, 1975,

Youssef Courbage et Emmanuel Todd, Révolution culturelle au Maroc : le sens d'une transition démographique, in Fondation Res Publica I vendredi 23 février 2007.

منوغرافية جهة الرباط سلا القنيطرة، منشورات المندوبية السامية للتخطيط، المديرية الجهوية الرباط سلا القنيطرة، 2017.

تقرير المجلس الاقتصادي والاجتماعي والبيئي، تشغيل الشباب، 2011.

تقرير النموذج التنموي الجديد، تحرير الطاقات واستعادة الثقة لتسريع واثرة التقدم وتحقيق الرفاه للجميع. التقرير العام، اللجنة الخاصة بالنموذج التنموي. أبريل 2021.

بوخريرص فوزي، العمل غير المهيكل بالمغرب، ضمن راصد الحقوق الاقتصادية والاجتماعية في البلدان العربية، العمل غير المهيكل، منشورات شبكة المنظمات العربية غير الحكومية للتنمية، بيروت، 2016.ص436-470.

جسوس محمد، الشباب وتحولات المجتمع المغربي، ضمن مؤلف، طروحات حول المسألة الاجتماعية، منشورات الأحداث المغربية، سلسلة كتاب الشهر عدد 6، 2003، ص71-72.

منشورات هيومان رايت ووتش، تقرير «حرية تكوين الجمعيات: نظام تصريحي بالاسم فقط»، أكتوبر- 2009.

بورقية رحمة وآخرون «التقرير التركيبي للبحث الوطني حول القيم» ضمن المؤلف الجماعي «المغرب الممكن: 50 سنة من التنمية البشرية وآفاق سنة 2025، مطبعة دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 2006.



الهاتف: 71 964 905

العنوان: نهج بحيرة فيكتوريا، إقامة فلانغو، مكتب عدد 21، ضفاف البحيرة 1053 تونس

البريد الإلكتروني: tunisia@international-alert.org

الموقع الإلكتروني: www.international-alert.org